مختارات
فصول

جمال الغيطانى

منتصف ليل الغربة

٧

مختارات فصول

جمال الغيطاني

٧
منتصف ليل الغربة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٤

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

تصدر عن

الهيئة المصرية

العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. عز الدين اسماعيل

إشراف

سليمان فياض

تصميم الغلاف : حسين ابو زيد

الاشراف الفنى : راجية حسين

أغسطس ١٩٨٤

وقائع
حارة
الطبلاوى

مذكرة ايضاحية حول واقعة
رقم ١٠٦ قسم الجمالية «القاهرة»

انه فى يوم الاثنين ، وفى التاسعة صباحا ، حضر الى قسم الجمالية عدد خمسة أشخاص ، من سكان حارة الطبلاوى ، ثلاثة ذكور ، واثنان اناث وبيانهم كالآتى :

١ ــ حسن آفندى متولى : موظف بادارة مكافحة الدودة، قسم الفقس ، وزارة الزراعة ٠

٢ ــ فارس سعد (الشهير بأبى قورة) : صاحب مقهى بالحسينية :

٣ ــ شمعه لطفى : حكيمية بمستشفى الآزهار النموذجية ٠

٤ ــ عويس يونس : فران بناحية كفر الزغارى ٠

٥ ـ محاسن حسن : مدرسة ابتـدائى ، تعمل بمدرسة النحاسين الابتدائية .

وتولى حسن أفنـدى متولى الحـديث نيابة عنهم ، فأدلى بالبلاغ التالى :

« انه منذ ستة أيام قام دحروج النمرسى ، اعتبارا من الساعة الواحدة صباحا ، وحتى السـابعة ، بدون انقطاع ، بمخـاطبة أهالى الحارة مسـتخدما بوقا ممـا يستعمله شرطة المرور فى الميادين والطرقات العامة ، وسـبب ازعاجا للسـكان ، علمـا بأنه يبتدىء كلامه بعبارات بذيئة ، تسب أهالى الحـارة كلهم ، وتصـفهم بأقبح الألفاظ ، وأنتنها وتمس العرض والشرف ، ونتج عن هذا اقلاق راحة المرضى ، والاضرار بصـحة الحاج أحمد العتر تاجر الورق ، الذى يعالج منذ عامين بسبب أعصابه ، ولما زاد الحال ، توجه اليه عـدد من سـكان الحارة وجيرانه القـدامى ، وطلبوا منـه الكف فردهم بعنف ، وطالبهم بفعل مافى وسعهم ، وكرر مرات أنه حر ، ولايعنيه أحد ، ولايوجد نص قانونى يعاقبه . لأن الجهاز الذى يستخدمه لايخضع للقيود المفروضة على استعمال مكبرات الصوت الكهربائية ، وذكر أرقام مواد ونصوص قانونية ، ثم حدثهم عن ماضيه الطـويل ، اذ

عمل جنديا فى الخدمة السرية لقوات الأمن العام ، وأعلن (هناك شهود على ماقاله) ، أنه خرب بيوتا عامرة خلال خدمته ، وأن أحد أقاربه يعمل الآن بمنصب هام للغاية ، ويقوم بتمزيق كافة الشكاوى المرسلة ضده بعد اطلاعه عليها واحدة ، واحدة ، ثم أغلق الباب بعنف • وفى الواحدة صباحا بدأ حديثه اليومى ، قذف من جاءوه واحدا واحدا بألفاظ بذيئة ، وعبارات غريبة ، عندئذ أطل بعض المسنين ، صاحوا عليه راجين السكوت، واحترام الجوار • فالنبى عليه الصلاة والسلام أوصى على سابع جار ، وهنا زاد بذاءته وسبهم بألفاظ تخدش رجولة كل منهم ، وأطلت غويشة امرأته لأول مرة ، وأعلنت وقوفها بالمرصاد لكل من تسول لها نفسها التهجم عليها ، أو على زوجها • وقالت انها صاحبت حريم الحارة والحى أربعين عاما ، جمعت لزوجها دحروج معلومات تكفى لسد كل بيت بالجبس ، ثم ذكرت أمثلة، وسبب وقوع مشاجرات بين أفراد عائلات لم يسمع لهم حس من قبل ، مما اضطر السكان بعد ستة أيام من العذاب المتصل اللجوء الى الشرطة ، وأنهى حسن أفندى أقواله مطالبا الأمن العام بالتدخل لحماية الأهالى من المذكور وامرأته غويشة ، فالبيوت العامرة تكاد تخرب •

ومن ناحية أخرى إفاد مسعد أفندى القاطن أسفل المذكور ، أنه سمع مكبر الصوت أول ليلة وقيل فيه : «آلو ٠٠ آلو ٠٠ واحـد ٠٠ اثنان ٠٠ ثلاثة ٠٠ الخ» وتلاوة البسملة عدة مرات ، وبعض آيات الذكر الحكيم، عندئذ طلع الى دحروج ظنا منه أن مصابا وقع ، مما استدعى تجربة مكبر الصوت فى هذه الساعة المتأخرة تمهيدا لتلاوة القرآن فى اليوم التالى ، وعندما طرق الباب فتحت غويشة وقالت بدون مقدمات «آخيرا حانت الساعة» ، ولم تدع فرصة لمسعد أفندى كى يستفسر عن أى ساعة تقصد «انمـا آكملت» دحروج سيحقق ما انتوى ٠٠ قل لجيرانك ، وجيران جيرانك ٠٠ آخيرا ٠٠ حانت الساعة ٠ ثم آغلقت الباب بعنف ، وآقسم مسعد أفندى على صحة ماحدث بفتحه المصحف على سورة ياسين ، ووضعه على عينيه وأقسم يمينا ٠

كما قدم المدعو فارس الشهير بأبى قورة ، شريطا سجل عليه بعض من آقوال المذكور عن طريق المكبر ، «تم تفريغ محتويات الشريط» واستعان بجهاز تسجيل ماركة جروندج خصصه لاذاعة أغانى أم كلثوم على زبائن المقهى ، وأفاد الجميع بأن الحارة لم تعرف القلاقل من قبل ، وتعد من آهدأ الحارات وآقلها فى عدد المشاغبات

والحوادث نادرة بها ، وسكانها مسالمون لايميلون الى ازعاج الغير ، ويحترمون القوانين والجوار الذى لايقل بالنسبة لاحدثهم عن عشرين عاما ، وأبناؤها التلاميذ متفوقون ، ومنذ عشر سنوات جاء ترتيب سيد ابن الحاج نصيف الثالث على شهادة الاعدادية (وطالبوا باجراء بحوث وتحريات تثبت هذا) والآن لايستطيع الطلبة استذكارا ، بسبب أعمال المذكور دحروج وامرأته غويشه» .

ملحق ١

«محتويات شريط مسجل عليه بعض أقوال المذكور، ولم يتضح فى هذه التسجيلات ، هل تمت ليلا أو نهارا ، ولم يعرف تاريخ كل منها ، برجاء وضع ذلك فى الاعتبار» :

١ ــ .. الا اذا اطلعتم بانفسكم ، ورأيتم مارأيت ، وهذا مستحيل ولم يتوفر لانسان قبلى ، أذكركم هنا بالمهن العديدة التى عملت بها ، اتقنت كل منها ، قضيت بها زمنا ، أذكركم بآخر أعمالى ، خدمتى خمس عشرة سنة في صفوف الخدمة السرية بالأمن العام ، تنقلى بين جميع المديريات ، والمراكز والقرى ،

سفرى الى بعض بلاد العالم فى مهام خفية ، لن أتحدث عن تفاصيلها الآن ولكن سيحين الوقت ، ستذهلون ذهولا عظيما وتقولون ، كيف عاش بيننا ؟ أكثر من ثلاثين عاما تواجدت بينكم ، هل شعرتم بى ؟ هل عرفتم أمرا واحدا عنى ؟ هل سمعتمونى أتحدث عن أحد بما لايليق ؟ طال صمتى والآن يمكننى قول مافى قلبى وعقلى ، ستجدون كلامى شيقا ، البعض سيضيق به مؤقتا ، لكنهم فى النهاية سيوجهون الى شكرا ، لأننى قومت حياتهم وأظهرت ماتعرفونه • ولكنكم تتجاهلونه، لكن العذر حق لكم ياأهالى الحارة المساكين ، من لديه خبرة عمر مثلى ؟ من أمسك ببواطن الأمور ؟ من أدرك الحقائق الخفية مثلى ؟ •

٢ ــ •• يامعلم يونس ، والله أرثى لك ، سخرت منى ولن أرد عليك خذها منى نصيحة ، أنا لاأحب الشجار ، ولا الوقوع فى مشاكل ، طول عمرى لم أقع فى مشكلة ، لم أقدم كمتهم الى أى مسئول ، لأننى من زمن طيب ، زمن حلو ، زمن عائق ، رائق ، غير زمانكم الموحل ، الأغبر ، لكننى سأقوم المعوج فيه ، أدبر أموره وأوجهه ، يامعلم يونس ، أنا لن أفضحك لكننى أنبهك الى ماغاب عنك ، طبعا تعرف دكان المعلم ماهر المنجد

فى بيت القاضى ، كلنا ، كل أهالى حارة الفقر هذه ·· كلنا نعرف يامعلم · من يدخل بيتك بقرطاس الفاكهة كل أحد وأربعاء أنت تخرج حوالى العاشرة ويستلم مكانك فى الثانية عشر ، العيون تحفظ منظره بالجلباب الأبيض ، بخواتم الذهب والصندل البنى ، الحارة كلها تعرف ولا أحد يخبرك ، لماذا ؟ لأن . سكانها عندهم مايكفيهم ·· و ··

(ضجة ، تصفيق ، أشياء تسقط ، أصوات ···)

٣ ــ ·· قبل أى كلام ، انتبه ياحسن أفندى : ياراجل يادودة ، أنا لايفوتنى شىء أبدا · مامن نفس زائد لديكم الا أحصيته ، مامن همسة الا وترجف طبلة أذنى هنا ، ألا تعلمون أن جدى كان عالما كبيرا فى الأزهر وأنه ترك لى مخطوطا قديما وعلمنى كيف أستخدمه ، فأعرف منه المستقبل الآتى ونهاية أعماركم، ألا تدركون أننى تلقيت أمرا بالحديث اليكم عن طريق هذا المخطوط ، يمكننى أن أنبىء كل منكم بيوم يحين فيه أجله ، ومن لديه هذه المقدرة لايغيب عنه ذهابك الى قسم الجمالية ، تزعمك وفدا ضدى · شكوتنى ، طلبت ابقاء اسمك سرا وهذا جبن . العجيب أنكم جميعا جبناء ، هذه سمة يتيمة توحد بينكم ، اذا خفت منى

أنا الفقير الضعيف الذى ناهز السبعين فلماذا لاتخش الله خالقى وخالقك ؟ بلغنى ماقلته عنى أمام مقهى البنان ، ماجرحت به امرأتى غويشة ، تهديك بأقاربك فى وزارة التموين ، ماذا تظنهم فاعلين ؟ اعلم ياحسن •• ياأهالى حارة الطبلاوى الكرام ، أن ابن خالة امرأتى غويشة كونستابل ممتاز ، ولاينقطع عن زيارتنا ويرجونى كثيرا أن أرد زياراته لدرجة أننى خجلت منه واعلموا أن علبة سجائره تحت أمرى ، أسحب منها وقتما أشاء ولكننى لاأستعين به قط على أعدائى ، لأن أحوالى وأمورى التى لن أبوح بها قط تحمينى وتجعلنى •••

«امرأة» : الرأى لك يادحروج ••

ـ لن أرد على ماقاله الحاج سنوسى بائع العطر •

«امرأة» : وصفك أوصافا دنيئة يادحروج •

ـ لن أخرب بيته ياغويشة ، لن أذكر مصنع العطور الصغير داخل شقته •• الحاج يتهرب من الضرائب ياغويشة ومن التامينات الاجتماعية ،ويستخدم أولادا صغارا •

«امرأة» : ياخبر .. والنبى لاأعرف هذا كله ، تصور أنه يلف على صفوف المصلين فى الحسين .. يمسح أيديهم بالعطر ويبيع زجاجات صغيرة يقول عنها . بركة من عند النبى ، بركة من المدينة المنورة .

٥ ــ .. ياأهالى الطبلاوى ، يامساكين ، ياوجوه النحس ، ياأشقياء عندما أطهر حياتكم من الكذب ، عندما أزيح عنكم النفاق والاضطراب ، وأنظم أموركم بطريقتى ، سأنزل اليه ، وأطلب منكم أن تحكموا عليه ، وتلقنوه درسا .

٦ ــ .. مثلا ، امرأة عمى بدوى عساس البهائم فى الأسواق تتحدث دائما عن أقاربها فى مصلحة السكك الحديدية ، والدى ، والثروات الطائلة ، دائما تكلمكم عن أهل زوجها الأشقياء الذين نهبوا نصيبه فى الميراث ، عم بدوى يرفع عليهم القضية ، لهذا فثمة ثروة ستأتيه يوما ، عندئذ تشترى الست نعيمة بيتا فى مصر الجديدة حوله حديقة ، وتملأه آثاثا فاخرا وتفارق الحارة القذرة ، وأهلها الانجاس ، ياأهالى الطبلاوى البلهاء ، لأننى أعرف كل كبيرة وصغيرة لأننى أعلم خباياكم ، ماتظهرون وماتبطنون ، لهذا سأقول لكم الحقيقة ، الست نعيمة التى تتعالى علينا ، تحدثنا من

طرف أنفها ، لا أقارب لزوجها كما تقول ، لهـا أخت صغيرة لاتدرون عنها شـيئا آسـمها راجحة ، وتسـكن بدروما قديما فى حارة سيدى معاذ ، زوجها بائع هريسة متجول ، وحتى التزم الدقة ، آقول انه يبيع بطاطا فهو يمتلك فرنا فوق عربة يد ، راجحة تساعده فى كسـب العيش ، هل تدرون كيف ؟ عندما تتشاجر امـرآة مع جارتها تذهب اليها ، تمنحها قروشا قليلة ، آو ، قطعة لحم فى رغيف وتسـتعين بها ، آخت السـت نعيمة لهـا محاضر عديدة فى البوليس ، وعندما تقل المشـاجرات تحترف النـدب ولطم الخـدود وراء المـوتى ياآهـالى البلاوى ، ياأكذب خلق الله فى زمانى البعيـد الطيب ، وأين أنتم من زمانى ؟ آمثـالكم لايسـمح لهم بالعيش فيه ، آه .. راح زمانى الأخضر ، آيامه هنيات ، كنا فى الليل نسمع الأغانى فى المقاهى الدافئة ، نشرب الزنجبيل والقرفة ، نصلى الفجر ، فى نفس هـذه الحـارة ينزل الرجـال يصيحون على بعضهم ، كل منهم ينبه الآخر ، وفى الليل الرائق تسـمع القباقيب ، والماء والوضوء ، ثم نخرج جماعة الى الحسـين ، ونقابل النهـار بوجوه سمحة ونفوس راضية . فى زمانى رآيت الأمان ذاته . لا انسـان يخاف على ماله آو آولاده آو بيته ، وكلمـا رأيت مايجرى بينكم يدركنى والله رعب ولكننى ملازمكم

حتى أقوم المعوج وأعيد السيرة الصافية هنا فى حارة الطبلاوى وليلحقنا باقى الدنيا ، لن أسمح بتكرار ماقامت به الست نعيمة عندما زارت جارتها أم سهير ، وعندما دخلت لتعد شايا ، مدت يدها ودست ورقة نقدية قيمتها خمس وعشرون قرشا فى صدرها ، أنا الآن أدفع التهمة عن مجدى الابن الوحيد للست سهير والمتهم ظلما ، والمهم ٠٠ اننى لن أطيل عليكم ٠٠

٧ ـ «أصوات مرتفعة» ياكلب ٠

يا ٠٠٠ اذ ٠٠٠ اذ ٠٠٠

٨ ـ ٠٠ أرجوك يامسعد أفندى ألا تتساءل ماوصلني وصل وانتهينا ، وأنا واثق أنك وحدك تعلم مقدار النقود التى تخبئها ، الفلوس الفضية القديمة ، الفضة الحقيقية ، فئة القرشان والخمسة قروش ، والعشرة ٠ أعرف عدد علب الصفيح المصفوفة فى منزلك ، وهوايتك ليلة الجمعة عندما تفرغ العلب من محتوياتها ، وتنشىء أكواما من النقود ، تغير أشكالها كما تشاء ، ثم تغسل النقود كلها فى طشت نحاسى كبير ثم تنام نوما هانئا ، بسبب هذه القطع من العملة والنقود الأخرى التى لن أذكر مكانها ٠ لم تتزوج ، ذاب عمرك فى عملك ٠ أذكرك بما فعلته الست نعيمة عندما سرقت

مبلغا تافها من أم سهير ! تعال نبحث عن السبب معا ، ثم دعنى أقل لك كيف نمنع وقوع هذا .

٩ ـ .. ياولد ياجابر ، ياسعيد ، زمانكما أجرب، لم تذوقا طعم النساء ، لم تستمتعا بأى شىء ، لو بيدى لحررت لكما جوازى سفر تهاجران بهما الى زمنى الأول، فيه عرفنا الأبكار الحقيقيات ، رأينا الحياء على حقيقته ، ذقنا المتعة ، الأنوثة الريانة ، كل ماتنالانه وقفة بلا جدوى أمام مدخل الحارة ، أصغيا الى .

١٠ ـ وأثناء قيام السيدة لواحظ .

١١ ـ .. أحمد العطار الشاب العفى الذى يركب الكبير قبل الصغير ، الفائح الرجولة ، هيه .. لكنه زمن مائع ، لايعرف فيه الرجل من الأنثى ، فالمقلوب معدول، والظاهر باطن ، ولاحول ولا قوة الا بالله العلى ..

بعض الوقائع

.. كل ماقاله دحروج ، كتبه عبد المقصود أفندى ، لديه خبرة عمر فى كتابة العرائض والشكاوى ، يعرف المدخل المناسب لكل شخصية وذى منصب مايجب قوله ، ومالايقال ، ذكر ماقيل فى حق امرأته ومايسىء الى فوقية ابنته التى دخلت سن الزواج ، ماسيلفت نظر

المسئولين بوزارة الداخلية بالذات هـذا المطلب العجيب الذى وجهه المدعو دحروج الى الاهالى ، ضرورة تعديل أوقات نومهم ، بحيث يأوى الجميع الى آسرتهم فى تمام الرابعة والنصف بعد الظهر كل يوم ، مع مراعاة ظروف الذين يعملون فى نفس الفترة ، ثم يوقظهم دحروج عن طريق مكبر الصوت ليتحدث اليهم ، وينظم آمـورهم ، لم يكتف بهذا بل منح الأهـالى مهلة قـدرها ثلاثة أيام يتحولون فيهـا من نظام إلى نظـام ، يغيرون عاداتهم ، عبد المقصود آفندى سطر خطا ثقيـلا بالمداد الأحمر ، تحت حديث لدحروج ، قال فيـه : «منـذ الآن حـارة الطبلاوى لها ناموس غير النواميس» •

الآن يضيق عبد المقصود آفندى ، اضطر الى ذكر أقوال دحروج حول امرآته وجيدة ، سيفضح نفسه ، لكن من الضرورى جدا اثباتها ، اذ آنها التهمة الوحيدة الواضحة التى يمكن آن يعاقب عليها طبقا للقانون ، يتململ عبد المقصود آفندى اذ يتخيل تهامس النساء فوق السلالم حول زوجته «المرآة جنت على كبر» تؤكد أخرى أنها تعرف ماقاله دحروج من قبل ، وسكتت طويلا حتى لاتنهش عرض جارة قديمة ، مايطمئن قليلا آن دحروج حذر كل انسان ، رجلا آو امرآة ، من تناول مضـمون

حديثه بالزيادة أو التشويش ، لكن هل يكفى هذا لربط الألسنة ، قام ، تحسس الأرض بحثا عن شبشبه ، قضى اليوم كله فى البيت ينسخ العـريضة ويرقب تصرفات وجيدة ٠

نظراتك غريبة ياسى عبد المقصود ٠

استعاذ بالله ، يحاول ألا يعلو صوته ، كل حركاته ونظراته تفسر الآن ، كل ماتقوله هى يتحلل فى ذهنه الى حيرة ، الى استفسارات ، استجابتها أسرع مما يجب لطلبه بمنعها من الطلوع الى عشة الفراخ فوق السطح ، حجرة الأسطى عبده بمواجهتها ، سـائق النقل العـام بمفرده ، ينام اليوم كله ، ينزل فى المغيب ليتسلم نوبة عمله ، ينظر الى امـرأته ، ينهض صـدرها ، لم تغب ملاحظته عن عين دحروج ، بل سخر قائلا : «هل يوجهه الأسطى عبده كما يمسك مقود العـربة» ٠ مايضـايقه اضطراره الى ذكر هذا كله فى العريضة ٠ ربما سخر منه المسؤولون ، لكنه أحكم الصياغة ، عدد من الجيران علموا بنيته فى ارسالها ، أبدوا بشرا وعلقوا آمالا ، يعرفون شهرته ٠ بل ان أحـدهم قال بالنص : «هـذه العريضة ستذبح دحروج ذبحـا» لكن عبد المقصـود الآن يتنفس ببطء ، لم يتشاجر مع امرأته يوما ، حتى بعد انقطاعهما

عن بعض فى السرير ، يذكر الآن حديثا لحسن أفندى متولى عن شهوة بعض النساء اذ يبلغن الخامسة والأربعين ، يطشن ، ألقت ساعة الحائط ثلاث دقات مختصرة ، بعد غد يحين انتهاء المهلة المحددة ليبدأ جميع أهالى الحارة نومهم فى الرابعة والنصف ، سمع امرأته تتثاءب ، نظر اليها ، وحنق فى عينية ٠

(٢)

باق عشر دقائق ٠

فى الواحدة يعلو مكبر الصوت ، يزن قليلا ، يلقى دحروج تحية المساء ويلعن الدنيا القائمة ، ويرثى الزمان القديم ، ويؤكد أنه سينتظر كل شىء ، ثم يتلو ماوصل اليه من أخبار ، يرد عليه البعض ، وتلقى الحجارة على نوافذ شقته المقفلة ، مهما حدث لن يفتح الحاج حمزة جزءا من نافذته المطلة على الحارة ٠ حتى الآن لم يتعرض له دحروج ، مع مرور الأيام ، وقيام الهياج فى الحارة ، أيقن الحاج حمزة أن اعتبارات عديدة تدخل فى امتناع دحروج عنه ، أهمها أنه قضى أكثر من ثلاثين عاما ناظرا لمدرسة كتخدا الابتدائية ٠ تلاميذه أصبحوا الآن رجالا ، يقابلونه فى الطريق ضباطا ومهندسين وكتبة فى المصالح

الحكومية ، يصافحونه فى المقهى اذ يجلس مرتديا جلبابه الأبيض متأملا لاعبى الطاولة ، أيضا ربما يعلم عنه دحروج موقفه عندما عرضوا عليه منذ عشر سنوات الانتقال الى مدرسة الروم الابتدائية مع ترقيته ناظرا ، لكنه رفض ، آثر البقاء فى الحى الذى ارتبط به ، ومرت أربع سنوات كاملة قبل أن يصبح ناظرا لمدرسته ، يعرف أن دحروج لم ينجب ويرثى له ، بالتأكيد يعانى ضيقا وآلاما ، لو أنجب طفلا وألحقه بالمدرسة لأولاه عناية خاصة ، الآن لايضيق بازعاج دحروج ، ليفعل مايشاء ، ليسب أهالى الحارة ، ليعيد الأمور فيها كيفما يشاء ، فعلا كثير من الأوضاع يجب تقويمها ، ليحدد للسكان نوعيات الطعام التى يجب أن يأكلوها يوميا ، المهم ·· ألا يذكر شيئا عن بناته ، دحروج عالم بكل شىء ، مطلع قطعا على أفكاره الودية، انه أول من ينفذ تعليماته ، عندما طلب أن ينام الجميع فى الرابعة والنصف ، أسرع الحاج حمزة بتطبيق هذا على بيته قبل انتهاء المهلة بيوم ، بناته أبدين ضيقا وامتعاضا ، أجبرهن على طاعته · لابد أن يتأكد لدى دحروج أن الحاج رجل طيب ، مرب فاضل كما تتحدث عنه كلمات الطلبة فى المدرسة ، كما وصفه المدير فى العدد السنوى من مجلة المنطقة التعليمية · فى كل

ليلة يصغى اليه ، اذ يسكت دحروج لحظات يمسك أنفاسه ، خشية أن توجه الفقرة التالية ضده ، تتعاقب عليه الانفعالات • مايرعبه أن يتحدث دحروج عن البنات ، بالأمس أبدت سعاد ابنته ضيقا ، تعودت عمرها كله استذكار دروسها من الخامسة حتى الحادية عشرة ثم تنام ، كيف تغير نظامها وامتحان التوجيهية مقترب ، أحاطها بذراعيه ، دفعها أمامه ، كاد يكم فاها ، قال : لاتنزعقى ، عمك دحروج لم يتعرض لنا ، عمك حر • صباح اليوم جاء بيومى السائق بمصلحة السكة الحديدية ، قدم اليه عريضة قال ان نصنف سكان الحارة وقع عليها ، والباقى سيوقع ، سوف تحدث العريضة صدى كبيرا لدى المسئولين ، خاصة بعد طلبات دحروج الغريبة من الأهالى ، واصراره على نومهم مبكرين ، وتوحيد طعامهم اليومى ، على أن يتولى الطهى بيتان أو ثلاثة يوميا لكل الأسر ، مقابل مبلغ يتفاوت طبقا لقدرة هذا وذاك يدفع أول كل شهر الى حسن أفندى متولى شخصيا ، قال بيومى ان المسئولين سوف يتدخلون فورا ، لأن العريضة سترسل بالتلغراف ، والمطلوب فقط قرشان والتوقيع ، الحاج حمزة لم يدع بيومى يكمل ، تفجر هدوء عمره كله •

« اسمع •• »

أسرع يطل من النافذة ، زعق مخاطبا أهالى الحارة بيومى وغيره • مع آن بيومى يقف فى الصالة ، انه لن يوقع على آى عريضة ضد جاره القديم دحروج النمرسى ، (وهنا علا صوته تماما ، وهذا مالم يعهده أهالى الحارة) • انه غير منزعج آبدا ، ومايفعله دحروج من حقه تماما ، سكت لحظة ثم زعق انه لايمت بصلة الى حارة الطبلاوى ، ولايعتبر من سكانها لأن مدخل بيته وشرفته الرئيسية تطل على شارع قصر الشوق ، آما النافذة التى تصله بالحارة فسيرسل فى طلب نجار ليسدها فى الحال ، برغم هذا سيصغى الى دحروج ، وينفذ كل مايأمر به ، خاصة وأن صحته وصحة الأولاد تقدمت بعد نومهم مبكرين ، انه ينصح جيرانه نصيحة لوجه الله : الحذار ، الحذار من آى عمل خفى ضد دحروج ، لأن الرجل مكشوف عنه الحجاب ، والا •• كيف تآتى له معرفة نص عريضة عبد المقصود آفندى كاملا ؟

(٣)

فترة تلى آذان الفجر ، يتحلل على مهل سواد الليل، تولد ملامح البيوت ، تتخلق آلوانها من جديد • ومن نبع خفى يطل بخار آبيض منظور عالق بالفراغ ، بلاط

الحارة يلمع تحت ضوء الفانوس الغازى الوحيد الذى يبدو يتيما شاحبا ، فى مواجهة ضوء نهارى وليد ، ومن نافذة متسعة ، فى الطابق الأول ، بالمنزل الرابع ، تطل الست روحية مع أولادها السبعة • صامتون يصغون الى مايقوله دحروج ، أيضا عائلة أم حسنى حتى الجدة العجوز ، منذ فترة وجيزة سكت ، بدت نافذة بيته مغلقة ، بنية اللون ، لم يرها أحد تفتح أبدا ، يعرفون أنه لن يكف تماما الا فى تمام السابعة ، لهذا ينتظرون الآن استئناف الحديث فى أى لحظة • فجأة انبثق صراخ رفيع ، حاد مسنون ، عويل متأن يبذله الجسم والنفس معا ، ممدود مقبض ، فيه خلاصة العجز الانسانى فى مواجهة أمر قاهر ، بدأ فرديا ثم أصبح جماعيا غليظا عبوسا ، نظر الساهرون من السكان الى منزل صالح أفندى ، فتحت نوافذه بصعوبة ، خرجت كلمة من بين العويل ••

ياخويا ••

استعاذ أهالى حارة الطبلاوى بالله ، كلهم بدون استثناء ، بدا خوف غامض على وجوه السيدات ، ينظرن الى نافذة دحروج المغلقة ، وكأنها باب للفرج أوصد ، أول أمس صاحت امرأة صالح أفندى فى تمام الثانية

صباحا مخاطبة دحروج ، تحدثه .. اذا أحاط بكل مايجرى بالحارة ، طالما أنه أوتى معرفة ماسيحدث ، وبعض الأهالى يقولون برفع الحجاب عنه ، فليقل لها اذن : هل سيشفى ابنها تيسير ؟ وحيدها المريض منذ عام ، الذى حارت به ، ولفت على جميع المستشفيات . يذكر أهالى الحارة الآن صمت دحروج ، ثم قوله المقتضب : «ياأم تيسير ، لو طلعت شمس يوم الثلاثاء على ابنك ، ووجدته حيا سيعيش مائة سنة» ثم استأنف كلامه العادى . الآن ، يبدو الثلاثاء جهما لايطاق ، وتذوب الأحشاء فى العويل القاسى ، والشمس على وشك الشروق .

(٤)

حتى مغيب اليوم التالى على ما أذاعه دحروج . لم تدر حسنية ماذا تفعل هل تذهب مع أولادها الأربعة الى ورشة الحاج بندق صانع التماثيل الخشبية ، تولول ، تجمع عليه الخلق ، تحكى كيف تزوج فتاة صغيرة ، ويبالغ فى تدليلها ، ولايعطى بيته مصروفا كافيا . لم تقصر فى حقه ، بداية حياتهما هنية طرية ، فى سنين زواجهما الأولى . رأت امرأة شعثاء جاحظة ، تدفع سربا من الأطفال ، وتحمل رضيعا ، تقف أمام دكان

موبيلياتى ، تطالبه بالمصروف ، تركها منذ آسابيع ، تذكر الدم المتدفق الى وجه المرآة ، عروق رقبتها النافرة الزرقاء • يومها قالت «بندق لن يفعل هذا بى آبدا» ، قبل عودته تطمئن الى نظافة البيت ، تمشط شعرها ، تتهيأ لاستقباله ، تروى بدنها بالأطايب ، حتى تبدو ريانة يستريح اليها من عناء يوم طويل ، الآن لاتجرؤ على الذهاب الى الورشة ، ربما يبهدلها ، ستجرى فى أروقة المحاكم ، تتوه فى طرقاتها • فى نظرات الكتبة الشبان والعجائز ، تبلى فى الانتظار ، لاتقدر على العودة الى البلدة ، شقيقها لن يحتملها مع آولادها ، لن تطيق نظرات الحريم ، يقلن فيما بينهن «لم تنفع فى مصر» لاتدرى ماتفعله الآن ، هل ترمى نفسها من الطابق الرابع ؟ تتخلص من ضيقها ، تنهى أوجاعها ومصائبها ، اذا لم تمت ربما قضت بقية عمرها عاجزة لاتصلح لعجين آو خبيز آو غسيل ، من يدرى ربما يرق قلبه اذ يراها مصابة ، يحن ويرجع الى آولاده • جاراتها نصحنها بالمضى الى دحروج ، تقف تحت نافذته، ترفع صوتها راجية آن يدلها آى السكك تسلك ؟ •

(٥)

•• أمام جامع سيدى مرزوق ، يقف حسن آفندى

متولى ، يقرأ الفاتحة ، فيما بعد لم يدر الحاج بيومى هل تم اللقاء مصادفة أم تعمد مقابلته ؟ عيناه حمراوان ، لم ينم ليل الحارة ، لم يتعود على النوم فى تمام الرابعة والنصف لايمكنه الآن الا الاضطجاع أثناء حديث دحروج ، قال حسن أفندى انه لافائدة من أى عمل تم حتى الآن ضد دحروج ، حتى عريضة عبد المقصود أفندى المشهور بصياغة العرائض وحبكها لم تأت بنتيجة ، بل ان أحد صورها المرسلة الى جهة رسمية أعيدت اليه لأن البريد لم يستدل على عنوان احدى الوزارات ، ثم ماهى حال عبد المقصود الآن ؟ بيته خرب بعد عمار ، هجرته الست وجيدة بعد أن أغرقها بالشك ، قال حسن أفندى ان مايقوم به دحروج لايوافق عليه ، وهو لم يقصر فى سبيل ايقافه عند حده ، وأهالى الطبلاوى يعرفون كلهم ، الكبير منهم والصغير أنه أول من ذهب الى القسم على رأس وفد من الحارة ، وقدم بلاغا وقع عليه ، وأملى بصوت عال رقم بطاقته العائلية ، وحتى الآن لم يحدث أى استدعاء لدحروج فلم يره أحد يخرج من بيته ، لم يظهر لدرجة أن بعض الشبان المتهورين الذين لايدرون آخر العواقب، قالوا فيما بينهم لاوجود لرجل اسمه دحروج ، والا فأين هو ؟ أما الصوت الذى يخاطب الأهالى ، فربما كان

بعض الأشقياء يريدون فرض أمور خطيرة على الحارة ، وما الصوت الا تسجيل يضعونه بين الحين والحين . وربما تتعرض الحارة لظاهرة خفية ، وأمور غير مرئية، وعندما ذهب أحدهم الى بيت دحروج ، تناقش مع مسعد أفندى ، أكد له وجود دحروج وامرأته غويشة .. وهذا أمر لاينكره الا أجنبى عن الحارة أو مجنون ، لأنه يعيش بينهم طوال عمره ، صحيح لم يسمع له حس ، ولكنه لم يحتجب الا بعد بدئه الحديث مع الأهالى ، وقال مسعد أفندى انه أدرى بوجوده لأنه يسكن تحته ، ويسمع صوت تحركه بالليل وبالنهار ، وهنا ارتفع صوت حسن أفندى ، هل تعلم ماذا جرى يوم أمس لشكرى ، أحد الشبان ، قال بيومى انه لايعرف بسبب تغيبه فى السفر ، قال حسن أفندى : فى المساء قال دحروج كل ماتناقشوا فيه ، وحذر شكرى مثير الشكوك ، ثم أنذره بعدم الذهاب الى امتحان الكلية ، ولو خالف فسيذيع الأدلة الدامغة بانتمائه الى احدى التنظيمات السرية التى تعمل ضد الحكومة . قال حسن أفندى أيضا ، انه رجل هادىء بطبعه لايحب الازعاج ولايطيقه، قال حسن أفندى انه يؤمن بعدم فائدة النطح فى الحجر ، وان النقش على الماء عبث ، والنفخ فى قربة مقطوعة مضيعة للوقت ، لهذا كله ، ولأسباب عديدة ، بعضها خفى ،

وبعضها معلن ، يرجو من الحاج بيومى سحب توقيعه • قاطعه الحاج قائلا انه أرسل العريضة فعلا ، صحيح أن السكان لم يوقعوا فعلا كلهم ، لكنه أرسلها حتى يحرك المسئولين ، استفسر حسن أفندى عن الجهات التى أرسلت اليها العريضة • وكتبها فى ورقة ، أبدى غما • قال انه سيرسل الى كل منها تلغرافا يعلن تراجعه ، قال ان الناس يحبون لبعضهم الأذى • ولايصح للحاج ولا لغيره ارسال العريضة بدون أخذ آراء من وقعوا عليها ، احتد الحاج بيومى قائلا : مجرد التوقيع يعنى الموافقة على ارسالها ، زعق حسن أفندى ، أبدا ، أبدا ، لايوجد ولن يخلق من يعلمه الأصول، هو موظف الحكومة الذى قضى عمره بادارة مكافحة الدودة ، قسم الفقس ، علا صوت الحاج بيومى موضحا ، انه هو أيضا موظف حكومى ، أليس السائق بالسكة الحديدية موظفا رسميا يقبض مرتبا شهريا ، ويتقاضى علاوات أكثر من التى يتقاضاها موظف فى الدرجة السابعة ، مط حسن أفندى شفتيه احتقارا • توقف بعض المارة ، تجمعوا حولهما •

★★★

مشاهدات الرقيب صـالح عبده ،
بالأمن الخاص فى حارة الطبلاوى
عنـدما جـاء يسـتطلع الأحوال :

«ياحاج بيومى ·· ياحاج بيومى ··»

كان البعض يجيب بتصفيق مماثل ، الضوء عال، والنهار شاحب مرتحل · هدوء ثقيل مراق بسـخاء ، منذ دخوله الحارة لم ير طفلا ، أو امرأة ، عادة يتصايح الصبية حوله ، يمشون خلفه يتوقعون منه حركة عنيفة مفاجئة ، فيحتفظون بمسافة معينة ، ربما اتقن الأهالى هنا تربية أولادهم ، حرموا عليهم اللعب فى الحارة ، توقف فى الطابق الأول أمـام باب جهم المنظر ، خبط مرات ، لم يجب أحد ، دق الباب بعنف ، حركة صغيرة مترددة ، صوت شبشب ، عـاد يطـرق البـاب ، يأتى همس ، اثنان يتبادلان الحديث ، لم يدر أهما رجلان أم امرأتان أم رجل وامرأة ؟ صـفق مـرتين ، عـلا صوت :

ــ ماهذا الازعاج ؟ ألا نستطيع النوم فى راحة ؟

ــ الحاج بيومى موجود ؟

ــ فوق ·· فوق ياعالم · ارحمـونا ، ودعـونا ننام ·

طلع الحاج ملتفا فى عباءة قديمة من وبر الجمل ورثها عن والده ، عيناه ضيقتـان ، فيمها آثار نوم ، الشرطى صـالح لاتزعجه مثل هـذه المقابلات ، أمثال الحاج يتباهون قائلين : طول عمرنا لم نمض الى قسم بوليس ، ولم نقف أمام نيابة ٠

«أنت قدمت»

لم يكمل الشرطى صالح حديثه ، قاطعه الحاج ، صوته رفيع حاد كصفير قاطرة متحشرج ٠

ـ أنا لم أقدم ولم أشك من ٠٠

ـ ولكن ٠٠٠

ـ تنـازلت ياأخـى ٠ تنـازلت عن الشـكوى والعريضة ، المصـارين تتصـارع فى البطن ، مابالك ونحن جيران ؟

ينظر الشرطى صالح دهشا ، قال الحاج انه تنازل عن كل شىء ، وأنه على اسـتعداد للذهاب الى السجن بسبب ازعاج السلطات ، لكن آن يسأل سؤالا واجـبا حول جاره العزيز : لا ٠ ثم يجب على الشرطة اختيار الوقت المناسب للحضور الى النـاس ، أما اقـلاقهم فى أحلى ساعات النوم ٠٠٠

نزل الشرطى صالح الى الحارة ٠ نوافذ البيوت

مغلقة ، تلفت حوله حائرا • دخل بيت دحروج ، فى منتصف الليل قبل بدء الحديث اليومى ، قيل ان دحروج خرج وتحدث للشرطى فعلا ، وان ضحكاته سمعت واضحة لمن لم يدركه النوم فى المواعيد المحددة ، أيضا استفسر دحروج عن بعض الأشياء ، أبدى اهتمامه تجاه أسماء معينة ، أبدى الشرطى دهشة • قال دحروج انه يعرف هؤلاء كلهم ، وكبيرهم رهن اشارته ، ثم أوصاه باتمام اجراءاته على أتم وجه ، فى هذه اللحظة دخل الحارة المعلم يونس الفرآن • رآه الشرطى صالح يرفع يده بالتحية اذ يمر تحت بيت دحروج ، النوافذ مغلقة لكنهم يثقون أنه يراهم ، يعرف من ألقى السلام ومن لم يلقه ، يعرف من جرؤ على تناول الطعام بمفرده خارج الحارة • أو فى بيته ، الحاج حمزة يفتح النافذة يوميا قبل نومه ، ويزعق بالسلام حتى بعد تعرض دحروج بالكلام لابنته الصغرى ، وذكر بعض تفاصيل علاقاتها بمدرس الكيمياء • أم تيسير منذ رحيل ابنها، بمجرد أن يبدأ دحروج حديثه تنزل مهرولة بقميص النوم ، ترفع ذراعها زاعقة تحت النافذة : «الله أكبر •• الله أكبر» عليه وعلى شبابه ، دحروج بركة ، أى مخلوق يجرؤ على شكواه ستناله مصائب ومحن ، وتغرقه رزايا • حتى الحاج أحمد تاجر الورق ، المريض

بأعصابه ، قال لكل من زاره آخيرا : ان صوت دحروج الليلى لايزعجه بل ينبئه آن شفاءه سيتم قريبا ، وأنه قبل ماكلفه به دحروج من قيامه بدور الوسيط بين المتخاصمين فى الحارة • بعد فترة آيقن رأفة دحروج به ومراعاته لظروف مرضه ، لم يعد يتخاصم آحد ، ومن لديه وجيعة يمضى بها طارحا اياها آمام دحروج ، أسند اليه آخف المهام ، وفى الواحدة صباحا يقف بالشرفة ، ويضحك ، ويهز رآسه موافقا ، يصيح مستحسنا مايقال ، عند باب الحارة توقف الشرطى صالح عبده لم ير آحد ، لاينوى توجيه آى سؤال ، رأى طفلا صغيرا يتجه الى مدخل الحارة • لمعت عيناه لحظة واتجه الي الطفل • انحنى حتى قارب رآسه ••

ـ اسمك ياشاطر ؟

ـ سعد •

ـ انت من هنا ؟ من حارة الطبلاوى ؟

أومأ الطفل ، بدا قلقا ، الأطفال لايكذبون ، كواجب أخير يحاول أن يعرف منه •

ـ يعنى ألم تسمع ميكروفونات أبدا بعد ••

هز الطفل رأسه • ابتسامة مرتعشة قلقة •

ـ خيالات ياشاويش •• أبدا •• أبدا ••

ـ هل تنام يابنى ..

رفع الصغير عينين شاحبتين ، بدأ متعجبا : أى سؤال هذا ؟ ما الذى يقوله هذا الشاويش ؟ انفلت يجرى مسرعا .

★★★

« تأشيرة على المذكرة الايضاحية رقم ١٠٦ م ، وعلى تقرير الشرطى صالح عبده ، وعلى عرائض مقدمة من بعض آهالى حارة الطبلاوى ، وشكاوى من مجهولين ، ونصوص مكالمات تليفونية ، لمواطنين رفضوا ذكر أسمائهم» .

« **يحفظ** ... »

منتصف
ليل
الغربة

اشارة تليفونية

من مديرية الصناعة الى مديرية الصحة

بناء على اشارتكم لنا بتاريخ اليوم ، بخصوص سرير خال بالاستراحة طرفكم .

نرجو حجز مكان باسم السيد/ يوسف عبد الرحمن الموظف المستجد طرفنا .

مبلغ الاشارة

امضـــاء

تتراجع البيوت على مهـل : الدكاكين الصـغيرة ، والاعلانات ، وألواح الزجاج ، يصيح رجل مناديا على تاكسى بالنفر ، تنساب أغنية من بيت قريب ، يذيعونها دائما فى هذا الوقت ، وحدة الظهيرة ، تزيد من الحركة ، يعود الناس من أعمالهم فى مدينته البعيدة الآن ، كان اذ يرى أباه يصيح : هيه ٠٠ بابا جه ٠٠ بابا جـه ٠ لاتذكره الأغنية بأيام راحت ٠ بل تثير فى نفسه تراب الحزن الدفين ، أيام حلوة مزهرة مشرقة ٠ جرى فوق رمال الشاطىء ، احتوى البحـر بعينيه ، وسامية بين ذراعيه ، أطعمته بيدها لحم السمك المشوى الأبيض ، مسحت عن شفتيه قطرات ماء البحر مالحة الطعم ، الآن يعض شفته ، وقع عجلات حنطور رتيب ، الهواء حوله بارد ، قالوا له ان برد المدينة شديد ، خاصة اذا مانزل الليل ، قالت أمه : اذا شعرت ببرد ضع جريدة قديمة فوق صدرك ، ربما تقف الآن فى الشرفة ، تعرف أن يوسف لن يظهر عند منحنى الشارع ، أبوه لم يصل ، ربما جاءت أخته الآن ، كان يروح ويجىء بين الغرف ، يقرص أخته ، يسألها : هـل تعرض لها أحـد ؟ يأكل بسرعة ، يمد يده ، يداعب ذقن أمه ، تحكى له عمـا رأته عندما نزلت تشترى السـمك ، دارت ٠٠ بحثت حتى وجدت السمك الذى يحبه ، الأسـواق مافيها الا

الشبار الصغير ، عند رجوعها قابلت السيدة آمينة ، كلمتها عن محمد الذى جاء وقرآ فاتحة ابنتها ، سعاد لم تتعلم ، ولها ثلاث آخوات كلهن بنات • آصولها ترضى بأول ابن حلال يجيء للبنت ، يصغى يوسف • فجآة ، يسأل آمه : آلم تحضر بنت حلوة كالقمر ، وتسآل عنه؟ فترفع آمه يديها وتطلب من الله تعالى آن يعجل بهذا اليوم الذى ترى فيه عروس ابنها ، تجاوزت العربة آخر بيوت البلدة الخلاء يتسع ، النخيل يتشابك ، الحنطور يمضى متمهلا •

★★★

الأربعاء ٢٢ ديسمبر

هل خاف الأطباء على آنفسهم من العدوى فآثروا العزلة ، لكى آقطع المسافة حتى المدينة لابد آن آمشى نصف ساعة فى طريق مترب ، خال تماما من البيوت والعشش ، تماما ماتوقعته لحظة رؤيتى المبنى ، النوافذ مستطيلة وكبيرة جدا ، مغلقة ، وكآنها لاتفتح آبدا ، أما الشرفة فقد أحاطت الطابق الثانى كله ، محمولة على قوائم خشبية ترتكز على الأرض • لحظتها تذكرت بيوت مدينتى البعيدة • ذات الواجهات الخشبية ، آه من رائحة الغسيل المنشور فى الهواء وملح البحر • لو

أغمض عينى ، وأفتحهما ، وأجـد الطـرق والمتاجر النظيفة والنساء الجميلات ، والبحر • لم يمر يوم الا ورأيته ، فى الليل أرهبه ، أخاف لو مشيت فأجد نفسى فوق مياهه • أمشى بعيدا عن السور ، ربما امتدت يد غليظة الأصابع ، وشـدتنى الى أعمـاقه ، ابتعد عن وشيش الأمواج ، العمق المحسـوس غـير المرئى ، بدا المبنى خربا عند عبورى حديقة الاستراحة الجرباء • تيقنت أن هناك من يرقبنى ، اقشـعر ظهرى ، طلعت السلم الذى يدور حول المبنى ، الدرجات الخشبية مغطاة بأوراق شجر جافة ، الصمت كالجبل كأن العالم خرب ، مدينتى البكر واسعة العينين لم توجد أبدا ، مع أننى فارقتها منذ ساعات •

فجـأة ظهر عبد المقصـود ، كنت متعبا • عيناى تكادان أن تنغلقا حـزنا وتعبا • انـه طـويل الجسم والعنق ، جامد الوجه ، ينظر دائما فى خط مستقيم • لم يرحب عبد المقصود بى ، نفس الجمود الذى قابلنى به الموظفون • لم أسـمع من يقـول : حمـد الله على السلامة • أنا أيضـا بادلتهم نظـرات الكره ، خاصة الشاب المتـأنق ، والعجـوز صـاحب الصـوت الملىء بالرغاوى • تبعت عم عبد المقصود وصداع أليم فى

قلبى ، لم أصدق أننى بعيد عن ساميه ، عن البحر ، وقد أسندت الحقيبة أمامى • وأطرقت مدة برأسى ، مغمض عينى •

«يوسف»

★★★

١ ـ الدكتور جلال محمود مرسى
من ١٢ ـ ٧ ـ ٦٨ حتى ١٣ ـ ٧ ـ ٦٨

٢ ـ محمد فوزى عبد السلام
من ٢٠ ـ ٨ ـ ٦٨ حتى ٢١ ـ ٨ ـ ٦٨

٣ ـ يوسف عبد الرحمن
من ١١ ـ ١٢ ـ ٦٨ حتى • • • • • •

★★★

ـ يعنى مفيش حد فى الاستراحة غيرى ياعم عبد المقصود ••

ـ أيوه ••

ـ لو نزلت البلد دلوقتى ورجعت متأخر مين يفتح لى ؟

ـ أنا دايما تلاقينى تحت • مابنزلش البلد غير قليل خالص •

ـ لكن السكة وحشة خالص ياعم عبد المقصود ..

ـ شوف يايوسف آفندى . الحته دى طول عمر خلا ماحد هوب ناحيتها . والطريق خطر ، وآولاد الحرام كتير .

ـ يعنى الرجوع بالليل مش مأمون .

ـ ده اذا جالك قلب وقدرت يايوسف أفندى .

★★★

الأربعاء ٢٢ ديسمبر :

لا أعرف ما الذى يجرى لى لو لم أحضر كراستى والقلم . فى مدينتى انقطع عن الكتابة بالشهر . واليوم آلجأ اليها مرتين . فى العصر كسرت عادتى ولم أنم ، البرد يشتد ، لاآستطيع القراءة الا تحت البطانية ، ثم .. لو نزلت البلدة ، مع من أقضى ليلتى ؟ المقاهى قليلة وصغيرة . فى بلدتى لو جلست على مقهى ، فى حى غير شارعى . لنظروا الى بريبة فكيف هنا والناس يعرفون بعضهم ، قال آبى ان آهالى البلدة كالحريم ينتهون من عمالهم ، ويدخلون بيوتهم ، فلا يخرجون منها الا فى صباح اليوم التالى . قال آبى الله يبعدنى عن آولاد الحرام ، قلت وعيناى تدمعان

والجرس يرن رنته الأولى : سأقضى وقتى وأذاكر انجليزى ، وأقرا الكتب ، ونصحنى بأننى لو استطعت أن أجد شابا فى مثل سنى ، غريبا ، ونستأجر غرفة أو شقة • وكنت أعلم لماذا يقول أبى هذا ، حتى لايضحك على أحد ويوقعنى فى بنت قد تبعدنى عنه ، وتقطع ماقد أرسله الى العائلة ، وعلى العموم نساء البلدة كلهن لسن جميلات كفتيات مدينتى ، آه من الزحام والشمس الحلوة صباح الجمعة عند محطة الترام الرئيسية والهواء يهب مشبعا بزرقة البحر ، عند المحطة رأيت سامية لأول مرة ، بلوزة بيضاء ، جونلة برتقالية ، جورب أسود ، حذاء أبيض كبير ، عيناها فى لون ، أى لون •• عسل النحل ، رأيتها كمطر خفيف ينزل على مهل فى يوم حار ، أوراق زهر صغيرة تكسو الرصيف فى أيام مارس الأخيرة • نجم شاحب بعيد قصى له عينان واسعتان ، وأنف دقيق ، وشفتان كالفراولة ، قلت لن أجد مثلها • لو انى خلقت بنتا لتمنيت أن أكون مثلها • لفترة حاولت أن أقيم علاقات مع فتيات يسكن فى شارعنا ، لكننى ترددت ، وارتعشت قبل حديثى اليهن ، ونصحنى زملائى بالجرأة ، وهاهى • لو ضاعت ، هذا الشىء الخفى الذى لا أراه ولا أدركه ، لقضيت عمرى بعيدا عن جنس النساء ، حاذيتها وقلت

لهـا ان قلبى قد ارتجف عنـدما رآها ، وانني أشـعر بصداقتها لى من زمن • توقفت ، نظرت الى وابتسامة على وجههـا حيرتني ، قالت آه ومـاذا بعـد ، اصرار عجيب انتابني • سألتها عن اسمها ، فى أى سـنة هى قالت أولى ثانوى • ثم قالت انني ظريف ، وطيـب • وفجأة كفت وطالبتي بالابتعاد ، قلت لها اسمي يوسف ، وانني حاصـل على دبلوم تجارة متوسـط وسـاعمل قريبـا ، وانني أنوى دخول امتحان الثـانوية العامة فلابد من الالتحاق بالجـامعة ، وقلت يمكننـا مذاكرة الانجليزى سويا ، ضحكت وكررت انني طيب جـدا ، وسألتها أهذا مدح أم ذم ، فطلبت مني برقة ألا اتقدم معها أكثر من ذلك ، بيت خالتهـا يقترب ، قلت انني انتظرها وأرجع معها حتى لو قضيت الليـل هنـاك ، ابتسمت وقالت لاداعى • تابعتها حتى اختفت ، وكررت فى ذهني عنوان المدرسـة ، فجأة صحت بأعلى صوتى انطلقت أجرى ، أجرع هـواء البـحر ، ألتهم الطريق الليـن • وددت لو أوقف كل من يقـابلني لأقـول له ماجرى ، ضـحكت وداعبت أمي كثـيرا حتى ظنت أنى شـارب حاجه ، وقلت لها انك أعظم أم فى العـالم • عنـدما قابلتها ليلة سـفرى ، دمعت عينيها ، قلت لها ربما غبت عنك شـهورا ، قالت أسـافر معك ضغطت

يدها ، الكازينو خال الا منا المصابيح الملونة تضىء فى انكسار ، وبقايا الأمطار فى منخفض من أرض الحديقة وغناء من بعيد ، قبلتها ، تخللت أصابعى شعرها الناعم كالليل • أقسمت لى بتربة أمها أنها سترسل كل ثلاثة أيام خطاب ، ستقول كل شىء جرى لها ، وللمدينة ، وفى المدرسة ، اذا نزل المطر ، اذا هاج البحر ، لو دخلت السينما مع أبيها وزوجته ، فستحكى لى بالضبط مارأته من أفلام ، وعندما خرجنا كان للهواء طعم القرنفل ، المصابيح عالية • ضوؤها مخنوق كصوتها لحظة الوداع ، لو أنها معى لانقلب كل شىء • عدت أصغى الى أزيز الصمت • تطلعت الى السقف المرتفع جدا • عندما سألت عبد المقصود عن هذه المدفأة الرخامية • قال ان الانجليز كانوا يتدفأون بنارها • سألته هل حضر أيام الانجليز هنا ، قال انهم هم الذين بنوا الاستراحة لمهندس الرى ، وكنت واحدا من الذين وضعوا حجارة المبنى وأخشابه فوق أكتافهم، ثم عينت فيه • صمت فجأة ، وبدا غير راغب فى الكلام • أسند الدورق وخرج • لاأعرف مايفعله فى هذه اللحظة ، كأنه لم ينم ، انما يطل على من ثقب الباب ، ارتعش دمى ، نفضت مايتدافع الى ذهنى ،

تأملت الكتب محاولا اختيار رواية أقتل بها مابقى من وقت ..

«يوسف»

★★★

تمسك يده بحافة النافذة ، يمرق شريط الضوء اللامع يكشف العربات التى بدت مستطيلا واحدا ، مرور العجل فوق فواصل القضبان ، قطار الثانية عشرة قادم من الشلال الى القاهرة ، مفتخر لايقف أبدا، يوسف يتابع الرجال النائمين على المقاعد الزرقاء فى العربات ، آخرون يشربون الشاى ، يأكلون الجاتوه فى عربة الأكل ، يبدو عليهم ملل ، الرحلة طويلة ، لو يركبه يوسف ، بعد ساعات يقف فى القاهرة ، ثم قطار آخر ينقله الى البحر ، لكم يبدو بعيدا وبطيئا هذا الوقت الذى سيمضى عليه هنا ، حتى يحصل على اجازة ويسافر . يسيل الضوء ناعما فى الخارج . أضواء المدينة البعيدة خافتة تزيدها بعدا . فجأة ينتبه الى وجود رجال فوق القنطرة الحجرية ، هل عبد المقصود بينهم ؟ لايرى الملامح ، أياديهم طويلة تلمس ماء الترعة ، لايجرؤ على اغماض عينيه ، لو يأتى بأقل حركة ربما تنبهوا اليه ، تنبعث من بعيد أصوات

مجهولة لم يميز منها الا مايشبه اطلاق النار • هل له صلة بعمل الرجال • لايعرف من آى جهـة يجيئون ؟ يظهرون فجأة ، ربما يخرجون من الاستراحة ، فجأة • يضيع كل مايراه ، يتبخر الضوء الناعم ، تضيع معالم الحجـرة ، تحتـه فراغ وفوقه ، هـل أصيب بالعمى المفاجىء ؟ هل يحيط به غرباء أقزام ؟ عمـالقة ؟ لن يطلع عليهم النهار • هنالك ، لن يعيش اللحظة التى تلى هذه ، لن يدرى أحد ، لن يحميه عبد المقصود ، يتحرك مشـلولا ناحيـة السرير ، تتقلص أصـابعه ممسكة بالبطانية ، ينتزعها بعنف ، ويلفها حـول جسـمه ، يصطدم اصبع قدمه بالمقعد المدبب الحواف ، لو قطعوا لسانه اللحظة لما شعر بالألم ، يسند ظهره الى الباب • وحيد تماما • نواة ملقاة فى فراغ حتى من النجوم ، والأرض ، وذرات الرمـل ، وسـامية ، وحـراشيف النخيل •

★★★

ــ صباح النور • لا والله ماسمعتش • أصل النور بيطفى بعد الساعة اتناشر • وابور البلد بيقف •

★★★

الخميس ٢٣ ـ ١٢ :

طلبنى المدير ، سألنى عن مجموعى فى الدبلوم ، وسرعتى فى الآلة الكاتبة وأعطانى ثلاثة خطابات ، طلب منى أن أنسخها ، شعره يلمع وأسنانه بيضاء يتكلم برقة ، يتناول بين لحظة وأخرى قلمه الحبر الطويل المغموس فى محبرة نحاسية ، ليؤشر به كلمة واحدة فقط ، كدت أقول له ان الاستراحة مزعجة ، واننى لن أرجع الليلة اليها ، غير أنى ترددت ، ماهى مبرراتى ؟ خرجت من عنده ، وفوجئت بزملائى ينتظرون خروجى ، سألونى عما قاله سيادته ؟ قلت : لا شىء • سكتوا ، نظروا الى بعداء • جاء رئيسى الشاب ، أعطانى عشر استمارات صرف لأراجعها • نظر الى الدوسيهات الكثيرة أمامى • قال لابأس اذا كان العمل كثيرا عليك ، لكن هذا لابد منه حتى تتمرن • قلت أبدا • فجأة سألنى عما قال المدير ، قلت : لاشىء ، وفعلا لم أر فى كلامه مايستحق أن أكرره ، غير أنه اعتدل واقفا ، نظر الى بعداء لم يخفه • كنت مجهدا ، وعيناى مليئتان بالصابون الحارق ، وعندى ميل الى القىء • تخز قلبى صورة سامية • بعد فترة جاء ، وأشار الى حقيبتى الصغيرة ، قلت له عما بها ، كراستى ، ورواية لم

أتمها ، وثلاثة مظاريف خطابات ، ومحفظة نقودى ، لأنى لاأحمل نقــودى فى جيبى • قال على مســمع من الآخرين ، انه لا مجال لقــراءة الروايات هنــا ، وان العمل جاد ، وانه هــو نفســه لايحب آن يحضر أحــد موظفيه روايات آثناء تأدية العمل الرســمى • عنــد الساعة الثانية وقعت آمام اسمى ، وفجأة ، جاء الساعى العجوز ، وطلب آن آكلم المدير ، تلفت حولى غير آنى لم أهتم بنظــراتهم ، ودخلت الى ســيادته ، ابتسم ، ولاحظت بدهشة آنه قصير القامة ، بعكس مايبدو أثناء جلوسه ، قال : لعل العمل لايكون ثقيــلا على نفسى • ارتحت • فارقتنى الرغبــة فى النوم • كأنهــا لحظــة رؤيتى سامية قادمة من ناحية البحر ، قلت : آبدا ان العمل لايرهقنى ، قلت فى نفسى : بعد دقيقة آكلمه عن الاستراحة ، كدت أقول له : آشعر بأننى آتكلم آول مرة مع انسان منذ وصــولى ، قال : هــل تعرف آحــد الموظفين هنا ؟ قلت : آبدا • سكت لحظة ، وقال : آنا هنا مثلك ، وربما آنت آعزب • آنا عندى آسرة مقيمة هنا • وللأسف هؤلاء الموظفون لايكفون عن الحديث عنى • سكت ثم تابع : طبعا هذا شىء مزعج • ولكن لو عرف مايقولونه بالضبط سيصبح الأمر غير ذى آهمية ، كل ماعلى أن آسمع مايقولونه فقط ، وآنقله بالحرف الواحد

لا أزيد ولا أنقص ، وبهذه المناسبة • هل تكلموا فى موضوع يخصنى اليوم • قلت : لا أذكر ، لوح بيده ، وبدا وجهه غير مهتم ، وطلب منى أن أنتبه من الآن ، خرجت والرغبة فى النوم تعاودنى ، ذهبت الى المحطة • جلست فوق رصيف المسافرين ، ثلاث بنات تلميذات ، وقفن بعيدا عنى • ينتظرن أوتوبيس الديزل الصغير الذى يصل المدينة بالقرى الصغيرة ، القريبة ، لم أنظر اليهن ، أين هن من سامية ؟ بل أين البحر ، الطرق اللامعة المتعطشة الى ماء المطر ، الأشرعة البعيدة كجناحى طائر محدودب ، أين البهجة فى وعائى عسل النحل المصفى ؟ تضحك ، تتقدمنى الى الترام ، ننزل آخر الخط ، نمشى بجوار البحر الذى يتنفس بقوة ، فجأة نجرى ، نجلس فى نهاية اللسان الحجرى ، أسند رأسى الى فخذيها ، أحيطها بذراعى ، ربما رآنا أحد ، لكننى أقطف ثمار الفراولة ، والكمثرى ، وأشرب عصير المشمش ، اذ تهدأ تأوهاتها ، نتحدث عن آمال نرجو أن تتحقق ، ليس من المعقول أن نقضى حياتنا فى هذه المدينة ، ياسامية ، بعد زواجنا سنرحل الى السودان ، الى أريتريا ، الى بيروت ، الى أوروبا ، نطوف المدن البعيدة معا ، نجلس على المقاهى تحت سفوح الجبال ، نخرج قلما وورقة ، نكتب تكاليف الرحلة الأولى • نشير

بعض الاعتراضات ، غير أننا نتغلب عليها ، ها ·· ربما تفكر سامية فيما قلناه الآن ؟ هل يعرف هؤلاء الموظفون أى مشاريع صغيرة رسمناها معا ؟ هل يدرى المدير بأحلامنا ؟ كأن دنياهم تتوقف على معرفة ماقالوه أو ماقاله ؟ يثور بى الخاطر أن أركب أول قطار الى مدينتى ، الى سامية ، وأسند رأسى على صدرها وأبكى، أبكى بلا دموع · قمت حاملا حقيبتى الصغيرة ، الرصيف خلا من الركاب ، والفتيات رحلن الى قراهن البعيدة ، وسامية خرجت من المدرسة الآن ·

«يوسف»

★★★

ــ أنت فاكر كلمتك فى ايه ياعم عبد المقصود ، ايه رأيك تبات معايا · اديك شلن كل ليلة · السريرين واحد ليه · وواحد ليك · كل ليلة شلن · آه والنبى · أحسن الأوده واسعة والبيت فاضى ، والحتة كده شكلها يخوف ·

★★★

لو معه راديو لسمع الأصوات المنبعثة من العالم ، هنا بيروت ، هنا لندن ، اذاعة الجمهورية العراقية من بغداد ، محطة الاذاعة العربية من موسكو ، عدن ،

الجزائر ، تختلط الأصوات ، تضيع النداءات ، حنين حاد يتحرك فى دمه ، أو يسمع أغنية من قرب ، أصوات الرجال ستبدأ بعد قليل فوق القنطرة • منذ ساعتين دخل عبد المقصود • تلفت حوله ، عيناه فحصتا كل مافى الحجرة ، كأنه يدخلها أول مرة ، ثيابة المعلقة فوق المشجب ، الحقيبة التى مازالت مفتوحة ، الحذاء ، الجورب ، الفوطة الملونة بخطوط سوداء ، المشط ، سأله عما يفعله بالكتب ، سكت •• ثم سأله عن سنه ، فقال يوسف : تسعة عشر عاما • قال انه صغير • تمدد ملتحفا بالبطانية ، آنهى الحديث فجأة ، لايدرى يوسف ما الذى يفعله الآن ، يطفىء النور آم يبقيه ، عبد المقصود لم يطلب اطفاءه ، لايعرف هل رجعوا الى القنطرة ، لكن ربما يطردهم عبد المقصود • يظن أن يوسف يرصد حركاتهم فيناله ضرر • قرض يوسف شفتيه ، برغم آن مظهره ينم عن نوم عميق ، غير ان احساسا خفيا يقول ليوسف : عبد المقصود لم ينم ، لو نظر الى عينيه من الناحية الأخرى ، لرآهما مفتوحتين • خفت الضوء ، بعد قليل ينقطع ، منذ لحظات خرجت حفلات السينما الأخيرة ، آربع مرات دخلها مع سامية • تقول لزوجة آبيها انها ستذاكر مع صاحبتها ، تاهت

نظراته على السقف ، وهو لايعرف ما الذى تفعله سامية الآن ·

السبت ١٢/٢٥ :

أرعبنى الليلة عبد المقصود ، ظل ساعة كاملة ينظر الى ، متجمدا كالحجر · قطع ماكنت أود أن أسأله عنه · حياته ، نزلاء الاستراحة ، وحدته · وفى الهواء تصاعدت رائحة عرق لم أشمها فيه من قبل ، بالرغم أنه تمدد من ساعة موليا وجهه الى الحائط · فهو يرقبنى الآن · أذناه تسمعان حركاتى ، تحصيان دقات قلبى ، أنا تعب ، خطابات سامية لم تصلنى بعد · كل يوم يوم أسأل مدير البوستة قبلى البلدة ، أنا حزين ، وأكاد أبكى ، لاأعرف لماذا يبدو عبدالمقصود غامضا، ولا أعرف لماذا يبدو عبد المقصود هكذا ·

«يوسف»

★★★

الساعة الثانية صباحا تقريبا · أقصى عمق لظلام الليل ، يوسف لم ينم ، حتى قطار الثانية عشرة لم يمر، يصر السرير فجأة ، يكف الهواء عن دخول رئتيه ، حفيف جلباب عبد المقصود لم يعد متمددا فوق السرير ·

ما الذى ينويه ؟ هل صمته ، اخفاء حركاته ، يخفى أمرا ، ينزل يشارك الرجال فوق القنطرة ، لايتجه الى الباب ، يقترب منه ، لحظات الكابوس • صراخه المكتوم من الأنف ، وشلل الجسم ، وصياح أبيه • اصحى •• اصحى ــ ولو ، فمن يهرع اليه هنا •• من يهز جسمه حتى يفيق ؟ من •• من ، يصر السرير ، ليس كابوسا، عرق عبد المقصود يملأ أنفه ، عبد المقصود يلامس جسمه ، يده الغليظة الخشنة تسد فمه ، أنفاسه ساخنة لزجة تقشعر ماوراء أذنيه ثقل جسمه ، اليد الأخرى تمتد الى بنطلون بيجامته ، الحجرة تغرق فى زيت لزج، لو يصرخ •• لكن من يجيب لو يزعق ؟

★★★

« كنت تقول لى ، انك لو نظرت الى وجهى لشعرت بحزن لايحز فى قلبك ، انما يشحن نفسك بما لاتدريه أنت ، وسألتك كيف تحزن اذ تنظر فى وجهى ؟ قلت انك حائر ، وهنا فى الغروب كل ليلة أذهب الى صاحبتى سعاد أذاكر معها ، وأرى وجهك أكثر من مرة فى الطريق •• عند منحنيات الشوارع ، أمام محلات عصير الفواكه ، أتذكر مشروعاتنا للسفر ، وأتخيل نفسى أننى سافرت وحدى ، الى بلدة صغيرة عند حدود

العالم ، شوارعها مبلطة ، وكنيستها قديمة ، أجلس فى مطعم له شرفة خشبية ، وفجأة أراك تعبر الطـريق ، ولاأكون متوقعة رؤيتك ، فاقفز من مكانى ، أناديك ، تدهش أنت اذ من يناديك بالعربية فى هـذا المكان ؟ تفتح ذراعيك ، تدور فى الهـواء • أسـألك ما الذى جاء بك ، وتسألنى ما الذى جاء بى ؟ ولاتسعنا الفرحة فنتمنى لو تحولنا الى طائرين صغيرين ، وطرنا الى أعلى الجبال المغطاة بالثلوج •• آه •• هل تذكر عندما كنت أتقدمك فى نزول سلم السـينما الطـويل الحـديدى المفروش بسجاد أحمر ، كنت تقـول لى •• أنت الآن تنزلين سلم البوينج ، ونخرج الى الشارع ، تقول اننا اجتزنا الجمارك ، فلاشىء معنا نحاسب عليه ، ثم تشرح ثم تشرح كل ماتراه ••

يوسف

فى اليوم الواحـد أفكر فيك يومين • هـل تذكر الجمبرى ؟ هذا الطريق الطويل المفـروش بالظـلال • ساعات يخيل الى آن المدينة خراب بدونك ، لم أعرف قسوة الفراق الا لحظة موت أمى ، ورحيلك أنت ، سأكتب لك كل ثلاثة أيام ، ربما كل يومين ، وربما كل يوم • واذا ماكتبت لى ، فلاتكتب أقـل من اربـع صـفحات

فولسكاب ، لابد أن أعرف كل كبيرة وصغيرة عنك • أكلك ، نومك ، شربك ، أصحابك ، وقتك ، كل شيء حتى أهدأ ، حتى أستريح ، وأخبرني متى ستحضر •

المخلصة لك

سامية

★★★

الأحد ١٢/٢٦ :

أكلت في المطعم الوحيد ، سألت الرجل عن مسكن خال حتى لو كان جحرا • فقال ان مأمور المركز كان أولى ، وانه لايستطيع احضار عائلته لأنه لايجد مسكنا، ونصحني ألا أتعب نفسي ،فأهالي البلد لايقبلون عزابا• في العصر خنقتني الغيوم ، همت على وجهي لاأجرؤ على اخراج خطاب سامية ، منذ جئت أنتظره . عندما قرأت خطها الرقيق خجلت من سطورها ، وبكيت • وحقدت على لون الضوء المتسلل في الفراغ ، والنوافذ الكبيرة المغلقة ، والرجال الذين يحملون أكياس الفاكهة الى عيالهم • أغرقني النهر حزنا كالنحاس الأزرق ، واذ رأيت بنات المدرسة الثانوية ، وثيابهن الرمادية ، تذكرت سامية ، وارتعشت ، كأنها تنظر الى من مكان لا أراه ، بعيدة عني ، لكنها تلمحني من مكان خفي ،

وجهها فى الفراغ . اينما رحت ينظر الى برثاء ، كدت أرمى نفسى فى النهر . كدت أضرب المدير القصير عندما طلب منى فى حدة أن أنقل اليه مايقال عنه حرفيا ، وأن أعتبر هذا أمرا ، بدا لى أنه يعرف تماما ماجرى ، وأنه على صلة خفية بعبد المقصود . أما الموظفون فنظروا الى بسخرية من وراء الدوسيهات ، طلب لى أحدهم شايا ، ولم أدر سبب الود المفاجىء ، كدت أرفضه ، وفى كل رشفة شعرت بنظراته . هاأنا أسقيك شايا . أنا لست أقل شأنا من عبد المقصود طبعا ، آخر النهار سألت عم محمد عن مكان خال ، فقال : هذا مستحيل ، حتى الباعة ، خادم المقهى ، هزوا رؤوسهم ، كلهم يعرفون ، حتى الرجال المحملقون الى من فوق مقاعد المقاهى ؟ المتجهون الى المحطة ليركبوا القطار . كلهم يعرفون ، مهدوا لما جرى ، لو أعود الآن الى مدينتى ، يعرفون فورا . قلت فلأنم الليل على رصيف المحطة ، أتأمل القطارات التى تجيء ، ولاتقف .. شربت شايا ، امتدت مخالب طيور صغيرة تنهش كبدى ، نزول السواد يمنعنى من العودة الى الاستراحة ، مقدمات المغيب كالطاعون ، تطردنى البيوت الى الخلاء المؤدى الى غابة النخيل .

يوسف

★★★

« •• أنا عـارف كويس انك دورت على لوكاندة طول اليوم • وكمان فكرت انك تسافر ، ولما يئست فكرت انك تنام على رصيف المحطة ، لكن البوليس لازم يمسكك • آنا عارف انك مش حتلاقى • حتى لو لقيت، فمش ممكن تسيب الاستراحة برضه • انت هنـا • عندى • آنا مش مخليك تحتاج حاجة آبدا • بس تقول لى على كل اللى انت بتعمله • تقـرالى الجـوابات اللى بتبعتها لأبوك وآمك •• وأصحابك • اذا دخلت فيلم تحكيه لى • آنا من سنين مادخلتش سينما • وبعدين الكتب الكثيرة اللى انت جايبها معاك دى • فيها ايه • أنا يايوسف من أربعين سنة هنا • عايش على آمل انه واحد زيك ييجى • يمكن اليوم اللى انت اتولدت فيه أنا كنت باتمنى الامنية دى • أنا وانت من هنا ورايح حته واحدة • الاستراحة كلها تحت آمـرك حتى لو انتهت مدتك الرسمية • حتفضل معايا ، آنا هنا الكل فى الكل • ياما قضيت سنين مادخل على أحد غير الصراف ييجى يسلم لى الماهية • شوف • حتى المديرية ماعرف طريقها فين • هما اللى يعرفوا طريقى •• »

★★★

« •• آقول كل شىء ولا آقوله ، الآن لم يبق لى الا أنت ، خطابى اليك ياحبيبى • هو الشىء الوحيد الذى

أكتبه على رصيف المحطة ، ومن يدرينى ربما فتحوه ، وأخـذوه ليعرفوا ماقلته لك ، أما خطابات أمى وأبى وأصحابى فأنا مطالب بتلاوتها أمام شيء لن أقول لك ماهو ، انما •• انه قـوة لابد أنا مـلاقى حتفى على يديها ، الناس هنا ياسامية غير الناس ، والعيون غير العيون ، الحياة غير الحياة ، كدت أبكى عندما أدركت فى لحظة بعينها أننى لم أفكر فيك يوما كاملا ، ملامحك بدت لى باهتة ، أنا لا أكـذب عليك ، بل أصـارحك تماما ، كدت أجرى لاطما وجهى ، صرعنى الحنين اليك حتى لو أرسلت صورتك الى فلن أستطيع الاحتفاظ بها • ولا تعليقها فى مكان ظاهر ، هذا الشيء لو رأى رسمك ، أخاف عليه منه ، ربما تعقبك ، ربما ذهب اليك فى مدينتنا • ربما قضى عليك كما يقضى على ••»

★★★

ــ يوسف •• هات فلوس عشان الغدا • اسمع • هات اللى معاك كله • انت الفلوس حتعمل بهـا ايه ، ماتخليش معـاك غير المصروف ، وده خـده منى كل يوم •

★★★

الاثنين ١٧ يناير :

منذ مدة لم تصلني خطابات من سامية ، حيرها ردى ، الآن أخاف عليها • حتى لو عدت الى المدينة ، حتى لو نقلت ، حتى لو رجعت ورأيت البحر كل يوم ، هل يعود ماكان بيننا ؟• هل نجرى بنفس الحيوية ، نضحك ، نأمل ، نتبادل القبلات ؟

★★★

الأربعاء ١٩ يناير :

صباح اليوم طلبت المصروف من عبد المقصود ، أخرج محفظته الكبيرة • قال ان الدنيا برد ، وقال انني صرخت مرتين أثناء نومى وأيقظنى ، كان يقف على بعد متر منى ، عيناه ثبت السواد فيهما ، فى الخارج علا ضجيج قطار ، تقدم منى ، وأمسك عنقى • يده دافئة، أنفاسه مشبعة برائحة الدخان ، لم أتحرك ، قيدت مكانى بآلاف القيود ، أحاطنى بذراعه ، قال انه لم يكف طول الليل عن الحلم بحسنية التى تمنى زواجها من عشرين سنة ، ولم يقبل آهلها ، قال انه لن يدعنى أذهب الى المصلحة ، سحبنى الى الحجرة مرة ثانية ، وكانت الشمس ضعيفة عاجزة • وكان يرتجف وريقه

يســيل ، لايعى • مــا الذى يقــولونه اذا لم أذهب • وهمس انه اليوم سيطبخ حمــاما محشوا بالفــريك ، وعلا ضجيج قطار •

★★★

يروح المدير فى الحجرة ويجىء ، يداه معقودتان وراء ظهره ، يثنى شفته السفلى ، يعضها ينفخ الهواء ساخنا من فمه ، يستدير الى يوسف كأنه يود لو يسأل : هل هذا صحيح ، محروس أفندى قال عنه هذا ، كأنه لايصدق • لكنه يثق بكل مايقوله يوسف الآن ، بعــد عدة أيام من نقله كل كبيرة وصغيرة الى سيادته ، شد على يده ، تأكد له صحة مايقوله يوسف ، كيف • يوسف لم يعرف ، ربما يتولى أحدهم نقل الأخبار اليه ، ثم يقارن مايصل اليه ، يدور المدير فجأة ، يقسم أن ينقل محروس أفندى الى قرى الضــفة الشرقية من النهر • يخرج يوسف ، يطلب قهوة ، لايبالى نظراتهم ، يطل على الميدان الصغير من النافذة المجاورة له ، حقا •• أى جرأة فى تبليغ النبأ الى سيادته ، لكن هذا ماسمعه فعلا من محروس أفندى ، البك المدير لايملأ عين امرأته ، لكن هل رآها واحد منكم • هل رأى الجوع المطل من عينيها ؟

★★★

•• حتى اننى أرجو أن تعذرنى ، ذهبت بالخطاب الى صاحبتى سعاد ، فهى تعرف كل شىء بيننا ، لكنها لم تفهم لم تعرف ، قالت ربما حبيبك فى ورطة ، لكن الخطاب به ماهو أشنع من ذلك • ماذا جرى ياحبيبى ، هل يهددك شخص ما ؟ هل اختطفتك عصابة ؟ هل أذاك المدير ؟ ماذا جرى ؟ أين خطط مستقبلنا ؟ أين ماتواعدنا عليه ؟

★★★

فى الصباح ، أعطاه المصروف وهو متمدد كالقتيل ، فمنذ أربع ليال يرقد من الغروب حتى خروج يوسف لايتحرك ، آخر الليل بدا متوحشا فاقد الوعى ، آلمه حتى صرخ ، بالأمس كاد يوقظه ليبادله الحديث ، فالوحشة شديدة ، ولم يعد يقتل الوقت فى القراءة ، كوم عبد المقصود كل الكتب فى الحجرة الأخرى ، لأنها كما يقول تشغل يوسف عنه ، أطل يوسف من النافذة غير أنه لم يجد الرجال الذين يجيئون الى القنطرة ، هاهو يعبر الطريق الخالى الى المقهى ، يقول الخادم ان البلدة لم تر بردا كهذا ، منذ لحظات توسط الميدان الكبير • تعب فجأة • البيوت حوله ، صامتة ، كالحة •• كأن الحجارة لها عيون وآذان ، انه وحيد حتى النخاع

واليافوخ ، لا وقع أقدام يسمع فى المدينة الا له ، جرى فى الميدان ، الأهالى ينظرون من وراء شيش النوافذ الماثل فى اتجاه الطريق •• كاد يصرخ ، مطالبا أى أحد ، أن ينتزعه من هذه الشوارع ، تلك البيوت ، المقهى حوله خال ، كل ماجرى يبدو له وكأنه يجرى أول مرة ، خطاب سامية الحزين مدفون الآن فى درج مكتبه ، الشىء الوحيد الذى أخفاه ، من يدريه ، ربما يعرف عبد المقصود كل شىء ، فمنذ ليال سأله بالحاح عن علاقته مع النساء ، يوسف يتساءل بمرارة ، لماذا يخفى عنه الخطاب ؟ لو تجىء سامية الآن ، لا آمال تبنى ، لا حديث خافت مهموس يدغدغ ماوراء الأذن ، لا قبلات ، لن يطبق البحر على جسميهما كالخيمة اذ يغوصان فيه حتى العنق ، لن يقفا أمام فتارين الأثاث ، هذا الركن يصلح فى الانتريه • يوسف •• الصالون لابد أن يكون مودرن ، كأنه يدرك ضياعها أول مرة •• الآن سامية غريبة • أمه ، أبوه ، كل أيامه البعيدة فى مدينته المغسولة بماء البحر ، عض زاحة يده •• يخاف أن يرى سامية فجأة ، ستعرف كل شىء • تهرب • تجرى ، فربما أخذها من يدها ، وذهب بها اليه • فعلا • ضاع كل شىء •

يوسف يقوم واقفا ، الابر المدببة تنفذ الى كليتيه، على الناصية ، دكان لبيع أدوات الحلاقة زجاجات العطر ، الأمواس أنواع ، المقابض الحمراء ، السوداء ، الزجاج متسخ ، أصابع قدميه تتوتر داخل حذائه ، تتشابك يداه ، ربما رآه عبد المقصود ، يسأله لماذا يحملها ؟ يعرف بسرعة ، ربما يرقبه الآن ، ربما صاحب المحل يعرفه ، يضربه عبد المقصود • يمزقه ، يرميه فى الترعة ، لن يدرى أحد ، الحيرة تشطره ، يزداد الضوء قتامة ، والبرد ينفذ الى رئتيه ، غمامة كبيرة تزحف فوق البيوت ، يرفع عينيه ، تحتوى وجها مشوه الملامح ، جاحظ العينين ، كاد يعرف صاحبه ، لولا أن الريح أزاحتها بسرعة ، يخرج صاحب المحل فجأة • يقول وعيناه محملقتان الى السماء : المطر لاينزل هنا أبدا •

ناطق
الزمان

مفتتح

فى آخر الزمان ، يقــوم المهــدى المنتظر ، ناطق الزمان ، يجىء الى الدنيا بعد أن يبلغ أمرها حدا لا حد بعده ، انه يعيش فيها ، لكنه خفى لايبين ، وفى يوم معين ، لحظة بعينها ، قيل انها ساعة شروق الشمس ، يظهر ، فيراه أولا الصفوة ، ثم يعم * عندئذ ، يقوم جنده من كل مكان ، من فجاح الأرض ودروبها يجيئون، آمنين ، موحدين ، فيملك الدنيا شرقها وغربها ، كمــا ملكها سليمان الحكيم ، وذو القرنين ، قال الثقاة انه لو

ظهر ثم اختفى ، وبقى فى عمر الدنيا يوم واحد ، لأطال الله عمر ذلك اليوم حتى يبعثه رب العالمين ، حينئذ تمتلىء آخر آيام الدنيا عدلا وسلاما ، من بعد آن ملئت ظلما وجورا •

جمع الكلمات

هدأ القطار سرعته ، انزلق سامى من فوق السطح الى فراغ مابين العربات ، قفز الى الأرض ، الهواء بارد ، يقول ان الشتاء بانتظاره ، باع كل شىء من أجله ثم فارقه • سامى نهار هجره الضوء • فى الميدان حركة ليالى الشتاء ، أصدقاء يفترقون ، جنود عابرون، مواصلات تشح فتتقطع أوصال المدينة ، عليه آن ينتظر ، يبحث عن مولاه من جديد ، سيجمع الحروف يضاهى الأرقام ، ينبش ضفتى النيل بابرة ، وحتما يلاقيه كما قابله ، سامى الآن وحيد حتى مرارته ، بلا بطاقة شخصية • نزع كل آوراقه ، ربما أذاقوه العزلة ، سجنوه ، وآين مخلصه لينقذه ؟ آين ناطق الزمان ، من يجمع كلماته ليوصلها اليه ؟ سيختفى فى الزحام ، يمضى الى آضرحة الأولياء ، بعينيه يسأل الناس عنه ، بارهاف آذنيه ، بالذكرى المتبقية ، يزور أمه ، يرثيها ، ينثر القرنفل الحزين فوق قبرها ،

يطلب منها أن تساعده ، يسألها كيف تجلى له ؟ رافقه، أضاع ما أضاع من أجله ، ثم غادره •• كيف ؟

أول الرؤية

سامى لم يفه بحرف ، بالدموع كاد يبكى ، عاش اللحظة الأولى ، رعشة الميلاد ، خروجه اليومى الصباحى ، السماء زجاجية اللون ، سور باب النصر ، عربات نقل الرمال ، رآه قادما من ناحية جبل الدراسة، قرص الشمس يلمس حافة الصحراء ، كل شىء آعد ، ليس صدفة آبدا ، رآه فى خفقات النهار الأولى ، فى اندفاق اللبن من اناء الى اناء ، سامى يعرفه ، هذا ماقرأ عنه ، قال مقتربا منه :

ـ أنت أنت ••

فى الطريق يخطو الصباح طفلا واسع العينين ، رقائق هواء •

ـ لن تفارقنى ياسامى ، مادمت عرفتنى ، فلا يحدث هذا كثيرا فى الزمان •

أتركنى فى غرفتك •• آمض انت الى رزقك فأنا لست محدودا بمكان •

« يبدأ ميلاد سامى ، فكر فى اللهجة التى يواجه

بها صاحب المتجر ، هل يتحدث اليه بأنفه وكبرياء ؟ أو بلا مبالاة ؟ كتم مافى نفسه ، لم يبح ، ستجىء لحظة معينة ، يدرك فيها صاحب المتجر ، وزملاؤه البائعون، والزبائن ، ماأدركه هو ، يعلمون أن سامى أول من اتبع خطى ناطق الزمان • فى المساء عبر كوبرى الجلاء ، تعاوده لحظات قديمة ، تدفق دما ساخنا طريا ، عودته الى البيت ، يعرف أن أمه بانتظاره ، أبوه سيصل بعد قليل ، خروجه لمقابلة هدى ، حركة يدها ، لون نظرتها ، رقة وجهها ، مشروعاتهما المشتركة ، تخيلهما شكل البيت الصغير المنتظر ، وقوفه أمام الهدايا ، يتمنى لو اشترى لها ، هذا القماش ، تلك الحقيبة ، يسرع الخطى ، يقابلها ، تضحك فرحة ، آه من حيرته فى ليل المدينة ، البيوت قضبان سجن ، أين يذهب ؟؟ يود لو يوقف أى رجل مار ، فقط يتحدث اليه • فترة مابين السابعة عشر وعامه العشرين ، بسرعة مرت ، لم يعشها ، أين راحت ؟ كيف ؟؟ كأنها ستعود من جديد ، فيض الآمال ، اعداد المشاريع ، لحظات ماقبل النوم ، الآن •• يعرف أن أيامه العطشى كأرض جفاها النيل ، ستنبض من جديد ، بكل ماراح ، ماضاع ، صوامع الغلال الفارغة المنخورة تمتلىء من جديد ، يشم رائحة التين فى الطريق الضيق المحفوف ، بمجرى

النيل فى قريته النائية ، يمشى مع أبيه • سامى لم يزر بلدته منذ سنين ، بعد اليوم ، لن تعصاه كلمة «لو» فى ميدان التحرير ، أمام محل يبيع الألبان ، تتصدره زجاجة لبن كبيرة ، آلة عصير مانجو ، مناضد ، همس شفاه ، قاوم نفسه ، آه لوصرخ ، يطلع فوق برج القاهرة ، يدور بهليوكبتر ، يشق فراغ مابين الأهرامات ، يعبر الكبارى الصغيرة المصنوعة من أخشاب النخيل ، يطوى مدقات الجبال ، يزعق •• أبشروا •• ظهر قائم الزمان •• ناطق الزمان •• جاء العدل والسلام ••

★★★

يطل من عينيه آمان ، آه ياأب اليتيم ، ياعائل الشريد ، يامنجى الغرقى ، نطق فارتجف سامى :

ـ أحسنت •• لكل لحظة أوانها المحتوم ••

بينهما صمت شفاف نقى كماء الورد ، أصوات العصر تجىء من الحارة ، يسمعها سامى أيام عطلته بمفرده ، ثرثرة النساء ، نداءات الباعة ، يتأمل ايقاع أصواتهم وتنوعها ، «ياخس ياحلو قوى» • «أصلح بوابير الجاز» • «الوداع ياملوخية» • أوان بعيدة تسقط ، موقد يشتعل ، صفارة نائية ، مجهولة المصدر،

رفع عينيه ، وجه ناطـق الزمان ، لايمكن من خـلاله تحديد العمر ، ربما قال ناظر ، انه مليح ، شاب ، ربما أكد مجرب حكيم ، أنها ملامح شـيخ جاوز الثمانين ، محير ، متى مولده ؟؟ هل لمثله أم عانت آلام المخاض ؟؟

ــ طالت رحلتى ·· غدا يأتى طوال السنين ؟؟

الليـلة ، يتم سـامى عامه الثلاثين ، من منتصف الليلة ، ينحدر العمر ، أيام رمضان الأخيرة تقول أمه ، مانصـومه لن يتكرر ، أيام شـبابه أيضا ذابت ، قال ناطق الزمان انه سينزل الى العالم · خفى · واضح · ظاهر · باطن · سيعرفه المقربون · بصيته يزعقون ، الأمر فى هذا الزمان صعب ، عسير ، منذ مئات السنين انتقل بين القرى وأسـواق المدن ، عبر جبال الثلوج البعيـدة ، الطرق الصحراوية المؤدية الى الواحـات ، بعضها لاوجود له الآن ، لم يطلب منه أحـد تصـاريح سفر ، واذا استبد الفضول بمخلوق فهو طواف لايهدأ له قرار ·

ــ أمـا الآن ·· فالحـذار ·· الحـذار ·· كثر الأعداء ··

سـامى الآن يشـم رائحة أبيه ، عودته كل ظهيرة بأقراص الطعمية الساخنة ، أمه تقعد أمام باب الحجرة،

ترتق قطع القماش القديم ، تصـلها ببعضها ، بتـأن تحاول ادخال الخيط فى ثقب الابرة ، سامى يشد ثوبها، تقول : اسكت ياسامى . اسكت ياحبيبى . قال ناطق الزمان ، ان الاعداء لاينتهون ، منذ أن طاردوه زمن الخلفاء الأمويين ، ثم العباسيين ، اضطر الى الاستتار فى بلدة صغيرة ، رقيقة ، كقصيدة شعر ، نائية فى الشام ، اسـمها سلمية ، منها انطلق دعاته ، غير أن الخـلاف دب بين الأتباع ، ظهـر أكثر من واحـد فى المغـرب ، فى الهنـد ، فى مصر والسودان ، ادعى كل منهم أنه هو ناطق الزمان ، لكنهم خابوا جميعا ، بقى هو مستترا ، سـامى ينظر الى مولاه ، يسـمع اقتراب الليل ، يرى أعـوامه الثـلاثين ، زمان .. زم أبوه شفتيه . فرح بنجاح ولده ، قال انه سـيبيع ما أمامه وما وراءه ، سيحمل حقائب المسافرين ، يقشر عيدان القصب فى مخازن محلات العصير . المهم أن يتم سامى تعليمه ، سامى دخـل الجامعة ، بالتحديد كلية الطب ، ربما جاء تعيينه طبيبا لمستشفى البندر ، يمتطى الحاج سلامة أغنى مشايخ البلدة ركوبته ، يمضى الى المستشفى، الثقة تملؤه ، الطبيب هو سامى ابن هارون القط ، أى والله هارون عرف يربى ، يقول سامى :

ـ يمكنني أن أعمل لأساعدك .. وفي نفس الوقت ..

يصيح أبوه : أبدا ، أبدا .

همس سامى وعيناه تحتويان ناطق الزمان :

ـ أينما ذهبت تتحقق الأمنيات . لن يتحسر انسان .

يقترب الغروب ، لايطيق سامى البقاء فى حجرته، كل مايراه ، يتدفق اليه . حزين . يفصله عن العالم بحر صعب العبور ، مولاه يتمتم بأدعية تنأى بالوحشة، أصابعه تمسك طرف ردائه الأبيض ، فى أى عصر نسج ، من أى قماش هو ؟؟ قال ان غربته لن تطول ، لن يرى أكثر مما رآه ، هنا فى مصر منذ أربعمائة وسبعين عاما ، قبض عليه العسس ، ظنوه من العربان المفسدين ، رموه فى سجن الجبل ، قضى فيه مائة عام ، وازدادت تسعا ، تعاقب عليه أجيال من الحراس ، استسلم للقضاء ، أليست عذاباته بعض مما يجرى فى العالم ؟؟ كاد سامى يبكى ، يسمع نواح أمه .

ياليتنى قبلك .

طفشت فى الحارة ، تشد ثياب النساء ، تهيل التراب فوق شعرها ، تعض نفسها ، تقول للرجال

العـابرين • راح أبو سـامى • راح من يعولنا • راح رجلى • من يعولنا ؟؟ رجلى ؟؟ ألفاظ توجع سامى ، ينزل ثقل فى دمه ، تعريشة الأسرة انكسرت ، الدفة التوت ، الربان هوى فى قاع اليم ، النخـاع انسـل هاربا من تجاويف العظام ، طوال شهور تلت ، أمه تلقى أحزانها فوق أمور صغيرة وقعت ، لو أنه لم يذهب الى أقاربه فى مصر القديمة لعاش ، لو أنه رأى اختـه نظلة ، راح محسورا لم يرها ، لو أخذ اجازة ، لم يعرف الراحـة أبدا ، لكن مانسبة هـذا الى مارآه ناطـق الزمان ؟؟ عذابات الكون منذ أن كانت الأرض صخرا ملتهبا ، ثم نبات وحشى خـال من الانسـان ، الآن الليلة ، تولد الآمال ، تمتلىء الوديان خضرة ، تمطـر السـماء فى أفواه المحتضرين عطشا •

★★★

ـ اذن • • أنت تعرف اليوم الذى رحل فيه أبى • •

ليس هذا فقط ، انما يعرف رعشة قلبه عنـدما عرف هدى ، لحظة مجيئها الى المتجر تشـترى فسـتانا بسيطا ، تلاقى عيونهما ، ادراكه مرفأ الحنين ، مـولاه يعرف طوافه الليلى ، هدى موجودة فى كل فتاة عابرة، تطل عليه من مكان خفى ، معه دائما ، يتخذ فى جوف

الليل قرارا ، آن يمشي من الحسين حتى كوبرى الجلاء ، يقف عند الحد الفاصل بين محافظتى القاهرة والجيزة، يتأمل أضواء العوامات الخافقة ، دوامات التراب الصغيرة والورق ، يلفظ اسمها قرب الفجر بصوت عال •• هدى ••

— مادمت أتبعك ياضيا عينى يامولاى •• فلن أقطع الأمل فى رؤيتها •

هز الامام رأسه ، ضوء الطرقات هامس ، تنذر السماء بهلاك مجهول ، رآها الامام منذ آلف سنة ، ترى ، ماذا جال بعقول آهل الأزمان البعيدة ، وهم يتطلعون الى السماء ذاتها ، ما آثارته كل لحظة من أحلام ، الهمس المتبادل ، ناطق الزمان عرف الغروب فى قرى الهند الفقيرة ، رآه فى الاحساء ، فى نجد ، بين ربوع الشام والأناضول ، بلاد القفقاس ، بحر الزنج، والبحر المحيط ، تجاوزا شوارع الضجيج ، خرجا الى الخط الحديدى المار قرب الحقول ، المطار الصغير ، الأنوار الزرقاء على جانبى الممر ، تنفذ رائحة الليل ، أنفاس الزرع ، الوقود المتساقط بين القضبان ، المولى يتطلع ، يكشف حجب المستقبل ، يرى مدنا أخرى

منثورة فى أركان العالم ، جزرا صغيرة يسكنها الأعراب والصيادون ..

البحث وراء التعابير

المراكبية لايأخذون معهم أحدا ، لكن ريس هذا المركب عندما رآهما أفسح لهما مكانا رحبا ، قال لناطق الزمان ، انه انتظره طويلا ، عند المنحنيات الحادة فى المجرى ، فى جرى الموج ، راح يغنى ، لصوته رائحة أرض الشراقى ، المتشوقة الى الماء ، يذكر امرأة بعيدة وعيالا صغارا ، يذكر مذاق البتاو البيتى ، الحليب الصباحى ، رائحة خبيز الظهيرة ، رحلته تستغرق شهرا كاملا ، ينقل الحبوب ، الغلال ، آوانى الفخار ، سامى يرقب خطو الليل ، الليل لاينزل من السماء ، انما يطلع من النيل ، من الضفتين ، من هسيس الحشرات ، ذرات الغبار التى تثيرها أقدام المارة فوق الطرق الريفية ، يترامى اليه تصفيق وغناء ، ربما فرح فى قرية نائية ، تدوم الريح فتطوى الزغاريد وطلقات الرصاص ، ناطق الزمان يغوص فى طبقات الظلام بعينيه ، أينما ذهب يدركه البعض ، يجهله آخرون ، أو يتجاهلون ، ربما أدركهم الأعداء المترصدون ، فى كل مكان ينتشرون ، قال الامام انهم فى البحار الكبيرة ، فوق

ثلوج الجبال ، فى ناطحات السحاب البعيدة ، فى الآثار القديمة ، فى المصارف ، قواديس السواقى ، تجاويف الطنبـور ، بين آلات القطـــارات ، حـــــول أذرع السيمافورات ، فى أروقة المستشفيات ، فى الابتسامات الصـــفراء ، ارتعاشات الجفون ، لو عــرفوه لانقضوا بحقد ، عمره آلاف السنين ، يتوارثونه ، سامى يضيع فى رهبة الليل ، يصغى الى نبض العالم ، لايعــرف كم انقضى عليه تابعا لمولاه ، شهور ، سنين ؟ توقف عمره عند الثلاثين ، يبدأ من جديد ، أعوامه البعيدة المنقضية بسهولة قاسية لاتصدق ، كأنها سنين غيره ، من يدرى ، ربما لو مد البصر عبر النيل ، يلقى طفولته ، شبابه ، حارة البيرقدار ، وقفته يبيع الثياب ، مساومة الزبائن تغير النهـــار خارج فترينة الزجاج ، ليس معقـــولا أن ما انقضى ضاع تماما •• لابد من وجوده فى مكان ، زمن ما •••

★★★

يرتعش صوت الشـــيخ العجــوز ، ناظر مدرسة ابتدائية ، قال انه رأى تباشير الأمل فى انطلاق النهر كل عام ، فى اكتمال القمر بدرا ، قال ناطق الزمان انه لايجىء بالخوارق ، لكن شيئا فشيئا يدرك العـــالم

الحقيقة فيقوم قومة رجل واحد ، سامى ، يقف عند آخر بيوت القرية ، حافة الصحراء ، يدوس بقدم فى الخضرة ، وقدم فى الرمال ، فى سكون الليل يحكى الشيخ عن رجال ماتوا بعد انتظار الامام طوال حياتهم، كثيرون خرجوا يبحثون عنه ولم يرجعوا ، توهج فى السماء نجم وحيد ، ليست المرة الأولى التى يجىء فيها الى هنا ، منذ مائة عام قضى بمصر زمنا ، ظهر فى كافة قراها ، نجوعها ، لم يأمن أعداءه كهذه الفترة ، يظهر فى أسواق القرى ، يتحدث الى باعة السمك المقلى ، وقطع البطيخ ، بالضبط قبل انكسار عرابى ، توالت الأيام ، تحسس وقع الهزيمة ، وبدأ الحزن يفاجئه ، لم يهاجمه سنين سجنه الطويلة ، ياه ‥ لايضارعه الا حزنه العظيم كلما تذكر موت الحبيب ، المنجب النجيب، ابن بنت رسول الله فى كربلاء ، فى كل عام ، عاشر محرم يقيم حدادا يكاد يهلك فيه ، لكن الحذار ، لو قضى لن يقوم أبدا ، لن يعرفه أحد ، أبدا يضيع ، اختبأ فى ثياب الفقراء القتلى كما اختبأ من قبل فى جراح ضحايا المغول بخوارزم ، انطوى مكتئبا ، فى فوهات المدافع المنطفئة ، ناءت أعضاؤه بالهم فاستتر ، لو أمسكه الأعداء لمزقوه قطعا أكبرها فى حجم الحبات الرفيعة داخل ثمر الباميا ، غير أن فلاحا عجوزا من هذه القرية

عرفه ، تحسس سامى بعينيه البيوت فى الظلام ، ربما نام الفلاح الفقير فى بيت من هؤلاء ، ربما طبع أثر قدميه فوق التراب الذى يطؤه سامى الآن • اقتفى الفلاح خطوات الامام ، آقسم الايمان ، وأخذ على نفسه المواثيق والعهود ، لن يعلن حقيقة الامام لأحد ، انهما غارقان فى زمن الهزيمة • الفرحة غاصت من القلوب، أما الحزن فيثقل الجميع ، شاب الأطفال ، قال ناطق الزمان ، ان هذه الأيام البعيدة ذكرته بأيام أكثر بعدا ، عندما دخل سليم العثمانى أرض مصر ، ولعب سيفه فى الرقاب ، فكاد ينهى الحى بها ، عندما اندفع المغول عبر بغداد ، واجتاحوا الشام فى أيام ، رأى فى الأعداء رجالا من قبائل الهون البربرية القديمة ، أعوان تيمور لنك ، الأسبان الغزاة ذابحو هنود الازتيك ، محاربون متوحشون يأكلون لحم الانسان ، ارتعش سامى ، يكاد يسمع وقع سنابك الخيول ، اصطدام السيوف بعظام الجباه ، قال ناطق الزمان لابراهيم الفلاح العجوز ، ربما لاترى تحقيق الآمال ، تموت محسورا ، أصر الرجل على صحبته ، زعق مناديا ربه ، عند قرية «شطب» جنوب آسيوط نسى أهله وماله ، ناطق الزمان أبوه ، كفنه بيديه ، صلى عليه ، يومها تبللت السماء بمطر ، ناءت بحمل غيوم ثقال ، زعق الناس

فى الصعيد ، أهذه نهاية الزمان ؟؟ أحرق الجثمان ، نثر الرماد فى أركان العالم وزواياه ، ابراهيم العجوز تبعه حتى النهاية ، لم يعرف اليأس •• بكى ناظر المدرسة ، العارفون به ، الذين جاؤوا من القرى المجاورة ، طافوا معه البيوت ، يكاد سامى أن يرى الفلاح العجوز ، ابراهيم الراحل منذ مائة عام ، ذهب ولم تتحقق الأمنيات ، أما هو ، سامى فكل شىء يراه دانيا ، يدخل الجامعة يصبح طبيبا ، يسمع صوت هدى ، هدى الآن قريبة منه ، تقول :

ــ مرور سنوات لايعنى شيئا •

تقلب السكر فى كوب الكركديه الساخن ، لحظات صمتها فى أذنيه حديث متصل •

ــ اسمع •• نبدأ معا • نذاكر دروس الانجليزية •

لايرد ، تتدفق فى صدره رغبة ، يحتضنها ، يذيب فوق صدرها حزنه ، ارهاق أيامه ، يرقص فوق منضدة الرخام ، يثب فرحا ، يهدأ ، ينفى آلامه ، آه لو يزعق فى الناس ، تفيض عواطفه ، تعبر ضلوعه ، ولا عاصم بعد اليوم •

ــ لن يستغرق الأمر سنة • تعيد دخول الامتحان ،

وألحقك أنا فى الجامعة . ليست رغبة أبيك .. انهـا رغبتى أنا ياسامى ..

ينطق سامى ، تتبدل الأشـياء ، يرق الهـواء ، يقول :

ــ هدى انت رائعة .. انت ملاك ..

ــ ياسلام ياسامى ..

تضـيق مابين حاجبيها ، يمتلىء الفـراغ بينهما بالآمال ، تبدو له سنين عمله القاسية وهما ، اسراعه ليلحق مواعيد العمل ، الوقوف النهـارى الطـويل ، ابتساماته للزبائن ، لم يعرف هدى خلال هذه الفترة ، كانت تعيش فى مكان ما ، قبل أن يعرفها ، يفكر ، لابد أنـه سـيلتقى بانسـانة تعيش الآن فى منزل معين ، تتحدث ، تأكل ، ترى من هى ؟ تبرق عيناها فى ذاكرته ، فى اتساعها يرى البلاد التى تمنى السفر اليها ، البيوت المغلقة فى الشتاء ، داخلها أصـوات الشارع البعيد ، زعيق السكارى ، هـدى تحمل صـينية فوقها أكواب الشاى الساخن ، بين يديه كتـاب ، فى أنفـه رائحة الأثاث البيتى ، تسأله عما يحب أن يأكلاه غدا ، تتصل به فى العمل ، تدعوه الى غذاء خارج البيت .

ألا تذكر . اليوم عيد زواجنا الثالث .

تحلق ذقنه كل صباح ، تميل تغسل ماكينة الحلاقة، يخطف منهـا قبـلة ، يحتضنها عنـد وقوفهـا أمـام البوتاجاز •

ياسلام ياسامى • حاسب الشاى •

يدعوها الى السينما ، يمضيان معا ، يسمع صلاة ناطق الزمان ، حديثه الى مريديه ، تضحك هدى ، يبعث أبوه حيا ، مورد الوجه ، فرحا ، لا أثر لشقاء السنين حول عينيه ، ينفض الغبار عن لافتة مدرسته القديمة، تعود طفولته ، آه ماأقبى استرجاع الطفـولة ، يأكل كشرى الحاج عبد العاطى ، يفرح لمجىء يوم الخميس ، يعقبه الجمعة • آجازة ، يسمع قبقاب آبيه العائد من صلاة الفجر ، يفرح فى لحظات الهدوء بين آمه وآبيه ، يعاكس الحـاج حامد مـدرس الرسـم الذى يقف فى الفصل ، يتأكد من اغلاق الأبواب والنوافذ ، يتطلع اليه الصغار ، يقول •• اسمعوا ياأولاد •• اسمعوا غناء عن مصر •• عن مصر يااولاد ، يحمر وجهه ، ينظر الصبية الى بعضهم ، يتضاحكون ، يستمر غناء الحاج حامد ، الآن ، يذكر مذاق صوته ، يكاد يبكيه • يتحدث الناظر ، والخفير ، والرجال •• لكن لابد من مواصلة الرحيل ••

★★★

ــ أرى دبيب أقدامهم • أشعر بانتشارهم •

أدرك سامى خوف ، صاح طائر غامض فى الفراغ العتيم ، هل يجرؤ انسان ؟؟

ــ أنا لايدنو منى أحد • عند الخطر استتر من جديد • أذوب فى الصخور •

ألجأ الى الكهوف الجبلية • أغوص فى عروق النحاس فى قاع منجم بعيد •

غير أن الأمنيات تشل الى حين •

سامى يهوى ، تصدمه أرض مجدبة ، يسفح عمره عند أفق المغيب ، تعود اليه لحظات احتضار أبيه ، رحيل هدى ، احترق قلبه يومها ، ما الذى جرى ؟

ــ متى يجىء الأوان الذى لابعده ولا قبله أوان يامولاى ؟

ــ ربما بعد شهر • بعد سنة • علم هذا عند ربى •

لو يزعق سامى ، يعبر صوته الهواء ، يجفف صديد العيون ، يدور مع سيور ماكينات الطحين ، أبراج الكهرباء ، الجمال المثقلة بالبوص •

ـ يكون عمرى انقضى يامولاى • لاأسمع هدى أبدا • أيرضيك ألا أسمع هدى • لاتعود من الحجاز • لا أراها بكرا من جديد • لا أدخل الجامعة • لاأداعب طفلى الصغير واسع العينين • طرى العظام •

زعق ريس المركب ، يلتوى القلع التواء حادا ، يخف السواد ، يفصح النهر عن ملامحه •

ـ نشقى من أجل الأجيال المقبلة ياولدى • ينعم أهلها ، يشربون اللبن من النهر ، يطرح نخيلهم خيرا وطمأنينة ، يأوون الى مضاجعهم آمنين • الغرباء المفزعون فى سواد الليالى ، يرق هواؤهم ، يصفو ماؤهم •

ارتجف سامى ، أين أنا عندئذ ؟ أين موقع قدمى ؟ أى أحجار تثقل رأسى ؟ الظلمة تغشى عينى جمجمتى الخاويتين ؟ أحلامى تتجمد فى أربعة وعشرين ضلعا ، عمود خال من النخاع ، رسغان وساعدان ، كل ما أصبوا اليه ، أين أنا حينئذ ؟ أين أنا ؟

★★★

يخوض مياه النهر الضحلة صياد عجوز ، يغرس حربة رفيعة مدببة فى ظهر البلطى والبياض ، سامى يتأمل قدمى الرجل ، منتفختان بالرطوبة والطمى ،

أخبرهما أن القوارب تزحم النهر ، صغيرة سريعة ، فى كل منها رجـلان ، يوقفون المراكب الكبيرة ، يفتشون أوانى الفخار ، ينبشون أجولة القمح والبلح ، حتى الآلات الصغيرة المرسلة فى الصنادل ، يفكون تروسها ، لم يبد على الرجل أنه عرفهما ، أيضـا لم يتضح هـل يجهلهما ؟ لكن ما الذى دعاه الى اخبارهما بهذا ؟ عاد صامتا يخوض فى الماء الضحل ، نظر سامى الى مولاه ، لطالما أطبقت عليه جبال أعلى من هذه ، صخورها أقسى، يعرف العالم شبرا شبرا ، وأرض مصر ، يعرف أى نتوء حجرى عند مدخل سمالوط ، التمثال الأثرى القـديم قبلى جهينة ، الغـرف التحتية فى البناء المشـيد قبـل الطوفان ، حيث الجـو رطـوبة فى الصيف ، دفء فى الشتاء ، يعرف المصانع ، مواعيـد تغيير الورديات ، صوت مدفع رمضان فى دمنهور ، السويس ، صوته فى قنا ، يحملق الى فراغ بعيد ، ربما يرى أشياء لايراها هو ، سامى توجعه خواطر مفاجأة ، ربمـا يعلو أزيز طائرة ، تطـل منها عيون فاحصـة ، تكشف المخبأ من الآمال ، يمسكون ناطق الزمان وتابعه الأمين •

★★★

جنود اللورى عند المدينة الريفية الصغيرة ، بكاء

أحدهم على صدر الامام ، آسمر الوجه يتوسـط ذقنه وشم أخضر ، مستدير ، باهت ، رآه من زمن ، كان مادة أحلامه ، والصور التى تخللت آيامه ، انه من الأنفوشى، يمتلك دكانا صغيرا يبيع فيه الفول والطعمية ، رآى الامام فى صباه ، فى كل تجويف يفصل بلاط الرخام الصغير الذى يرصع دكانه ، فى مرض آمه وشفائها ، انتظره عند ساحل البحر ، فى آبى قير ، فوق الصخور ، لاشىء ، انما صخور وحشية ، مقطبة الجبين ، تلتقى التقاء صريحا بالسماء والبحـر ، لم ينله يآس ، حتما ينطق الزمان ، من زرقة المياه ، من ملوحة طعمها فوق الشفاه ، من الطوابى القديمة ، مواسير مدافع عرابى الملقاه برثاء ، آه يامولاى .. جئت ، وآين ؟ هنـا ، ارتجف اللورى ، لانت ذرات الرمـال ، مالت عيـدان القمح ، ابتهل بقية الجنود ، دمعوا ، نزلا من اللورى ، تساءل سامى ، هل يراهم ثانية ؟ محمد ابن الانفوشى ؟ حسين نساج الكليم من فوة ، عبد الهادى عامل الآثار الصعيدى ، السائق النوبى ، قال ناطق الزمان : حتما سيرجع ، يلقاهم . هو موجود حتى لو استتر ، فوقهم ، حولهم ، لاتبعده عواصف ، لاتقصيه صفارات انذار آو دوى .

★★★

« لماذا لم يقل لهم أنة ربما عاد بعد ألف سنة كما أخبرني ؟؟»

بماذا يجيبون لوعرفوا أن الأعمار ربما انقضت فى انتظاره ؟ استعاذ سامى بالله ، يعرف أن الأعداء يطرقون الوسائل كلها ، ربما بذروا الشك فى حقل روحه ، توجهوا الى الحجاز ، ذبحوا هدى •• يحضرون دمها الحبيب اليه ، يرمونه على عينيه فيضيع منه البصر ، يقطع من رجوعها الأمل ، شربهما الكركدكه ، همسهما الخفيض ، توقفهما أمام فتارين الأثاث ، متاجر التحف ، تقول هى ، لابد أن يحتوى الصالون على فازة صينية ، تمثال محارب زنجى ، ترى الأطفال الصغار المصنوعين من الشمع فى متاجر الثياب ، تهمس ، أنا أحب الأطفال ، يخجل ، يتحدث الحديث ، تطلب بنتا ، يتمنى ولدا ، يكتفيان لاأكثر ، أما اذا جاء الأول ولدا والثانى ولدا والثالث ، تضحك هدى ، لابد أن نصر حتى تجىء مديحة ، يسأل : لماذا مديحة بالذات ؟ لأنها تحب خالتها جدا ، هى أمها التى لم ترها ، لم تعرف الا هى منذ الرضاع ، يتساءل سامى : هل تذكر هدى بين جدران بيتها المغلق ماقيل ؟ ربما أنجبت ابنة الآن ، حجازية الجنسية ، هل اسمها مديحة أيضا ، السماء

خاوية ،صحراء فى عينى سامى ،الذكرى تلون الأشياء، تنأى بالامام عنه ، يفيق الى وجوده •

★★★

ـ لابد أنهم يسدون مفارق الطرقات • يختبئون فى عربات الرحيل •

يكاد يحس لون نظراتهم ، قسوة خوذاتهم المكسوة بشباك التمويه ، الهلاك فى آسلحتهم ، تهب ريح عاتية، السماء حـزينة ، الأرض تقلع ويفيض الماء ، سكت الامام لحظة كالسنين ، ثم قال انه يعرف دربا صحراويا غرب قرية الغنـايم ينتهى فى صـحراء السودان ، لم تطرقه قدم انسان منـذ مر به يتبعه ابراهيم الفـلاح العجوز ، يمضيان فيه ، يخرجان شمال آسوان ، خطت قدماه فوق الحصى ، رق الغمام ، غير آن شيخوخة غريبة، زحفت فى عروق سامى ، لكم آحس بقصر عمره ، فى مقهى الكلوب العصرى يطوف رجـل ضخم ، يرتدى معطفا جلديا ، فوق ظهره رسم لوحـه آحمر ، مشوه الملامح ، بارز الأنياب ، لايدرى أهو لجن أم انسان ؟؟ أربعة شهور ، فى كل يوم ، نفس الميعاد يجىء ، يضع بطاقة صغيرة فوق منضدة الرخام •

« اقرأ الكف ، حاضر ، مستقبل ، أحلام ، أمنيات سيد سعيد » •

يهز سامى رأسه ، يمضى الرجـل ، حتى اسـتبد الفضول بسامى ذات مساء ، شد الرجل كرسياً ، بسط سامى راحته ، ضيق الرجل عينيه ، أسند رأسه الى يده ، رأى سكة السفر ، وضيقا فى العمـل ، ومرضـا فى الصغر •

ــ لكن عمرك قصير • ولو عشت مائة سنة •

ماذا يقصد ؟؟ أى شىء يعنى ؟؟ لكنه قام ، دس بطاقته فى جيبه ، طلب خمسة قروش ، فى هذا الوقت لم يمض على سفر هدى أسابيع ، هجره النوم ، راحـة عقله متعـة نائيـة ، لايدرك صاحب المتجـر ذرة من همومه ، أما الزبائن فيشيرون ، أعطنا من هذا ، لا •• من الأحمـر ، اقطع أربعـة أمتـار ، لاداعى ، نلف ونرجع ، يشرب الماء تسـبقه الأقراص المنومة ، حكى لناطق الزمان عن عذابات الليالى ، سـهره حتى مجىء الرجل العجوز مجدوع الأنف ، فى الفجر تماما يصيح : «يانايم قوم وحد الدايم •• بكره تقوم القيامة •• وينصب الميزان ، يبقى اللى وفى يعدى • أما الشقى حيران» يدرك أن يوما انقضى ، يزعق الرجل ، تبقى

النوافذ مغلقة ، من عشرين سنة ، اذ يقترب الفجر ، يصيح رجال الحارة على بعضهم ، الحاج حنفى جساس البهائم ، يدس يده طوال النهار فى الأرحام ليعرف الأنثى المقبلة من الذكر ، يصيح على سعودى الجزار ، سيد الترزى ، على المكوجى ، ينادى أبوه ، فى دفء فراشه ، يسمع وقع القباقيب فوق بلاط المساكن ، اندفاق المياه من الصنابير ، تجمعهم فى الحارة ، عن ليالى الشتاء ، يمضون الى الحسين ، أصواتهم عالية ، تبقى معلقة بين البيوت زمنا بعد ذهابهم ٠

★★★

آه لو يسأله سؤالا واحدا ٠ هل ينوى الاستتار عنه ٠ الاستتار عنه هو ؟ هو الذى ودع كل شىء ، لايجرؤ على نطق الكلام ، يردده عقله ، فى خطوه فوق الرمال القاسية ، تحت انصهار الشمس الذى يزرع العوسج فى العيون ، يعرف آن الامام يدرك مافى خاطره ، عالم بكل شىء ، قرأ كل ماجرى وماسيجرى فى كتاب الجفر الذى تركه الامام على ، فيه رعشة الأمل ، خفقة القلب ، هم الفكر ، فرحة الغريب بالعودة الى دفء البيت ، آه لو يجيب حيرته ٠ يفك ضيقه ، يلملم عذابه ٠ لكنه لم يفه بحرف ٠

ماذا يفعل بدونه ؟؟ يسحقه يأس مخرب كالغزاة ، لحيته طالت ، ملامحه تغيرت ، قبل رحيل أبيه ، موت أمه ، قبل حدوث شيء مخيف ، تمر به لحظات يتجسد فيها ماهو متوقع ، عند خروجه من سينما الكواكب ، عودته الى البيت فى منتصف الليل ، يرى اللحظة التى تموت فيها أمه ، بكل سوادها الذى ينزف دما ، عندما رحلت رأى أن الموقف غير جديد عليه ، الآن يهوى قلبه بين ضلوعه ، يرى لحظة يخافها ، استتار الامام ، احتجابه عنه ، هل يقتل نفسه عندئذ ؟؟ وهل هذا سبيل للعثور عليه ؟؟ الآن يجلسان أمام كشك صغير داخله عجوز نوبى ، يحرس ملايين الأطنان من الطفلة المنتزعة من المنجم القريب ، مهجور منذ شهور ، لكن من يتوغل أربعين كيلو مترا شمال آسوان فى الصحراء ليسرق حفنة حجارة أو طن حتى ؟؟ الصخور تغرقها ، تتخذ أشكالا غريبة : وجوه آدمية ، سيوف مشرعة ، بيارق مكسورة ، فيها يرى كل شبر وطئه مع مولاه ، القرى ، الآمال فى العيون ، بلاد الأفغان النائية التى شرعا فى الرحيل اليها ، الهند ، البحار الجنوبية ، سفن صيد الحيتان ، رائحة العشب فى الغابات ، قرقرة

النرجيلة فوق المصاطب ، تطلع الحراس فى بطاقات الغرباء ، فى الصخور عيون واسعة قاسية فارقت رؤوس أصحابها ، ناطق الزمان صامت ، لماذا ؟؟ لايتحدث عن جيوش الأعداء التى رآها ، أو غضبة الأرض ساعة الزلازل ، الفيضانات ، الأوبئة تكنس البشر ، يسيح بعينيه عبر الأفق ، أيكشف حجب المستقبل ، ربما ضاع منه كتاب «الجفر» الذى يحوى كل شىء ، من بعيد يحبو عويل قطار ، يفاجئه حنين المسافرين ، شعور الغربة المكثف لحظة عودة الأسرى ، لماذا يسكت الامام ؟؟ لماذا يطل الحرمان من جديد ؟؟ يكاد يصرخ ، يطلب منه أن يصارحه بما ينوى ، أما الحارس النوبى فينظر اليه ولها خاشعا ، كأنه قضى فى رفقته العمر كله •

★★★

قال ان عربة لاندروفر ، تتجه الى أحشاء الصحراء ، ركابها أربعة ، يحملون أسلحة ، وآلات تصوير ، قبعاتهم تقيهم الشمس ، تابعها ببصره حتى اختفت وسط أعمدة الرمال الناعمة التى ترتفع من الأرض لتتصل بزرقة السماء ساعة الظهيرة ، تمطى فى الفراغ عواء ذئب ، قال الحارس العجوز ، كأنه يقدم

تقريرا مفجعا ، ثمة طائرة حومت الى الشرق ، جرادة ضخمة ، يظن البحر مقصدها ·

★★★

سامى يرى نفسه الآن مصلوبا ساعة مغيب ، ينادى الامام أن يظهر ، يعيد ما انقضى ، كان كل ليلة يمضى الى مقهى مصطفى درويش بميدان الحسين ، يشرب الحلبة ، ينظر البنات المسرعات الى بيوتهن ، يرى رجلا مجذوبا يلف حول رأسه عمامة حمراء فى لون الدم ، يلبس جاكتة عسكرية عليها شارات ونياشين · تجاورها أغطية زجاجات البيرة ، البيبسى كولا ، يرفع سيفا خشبيا ، يترصد أعداء يراهم هو ، يطارد آجانب خان الخليلى اذا ماحاولوا التقاط صورة له ، صار يقف فى الميدان ، لحظة الغروب ، ينادى الليل ألا يقبل ، والنهار ألا يرحل ، يرميه العيال بالطوب ·· «بلعو ·· بلعو ··» عند حارة الوطاويط رآه دامى الوجه ، يمسك احدى أسنانه بيده ، أى بشر يدنو منه ، هو عدو يبغى رأس الحسين بسوء ، سامى الآن يرى عنقه فى قبضة جندى يسوقه الى غرفة الحجز فى قسم ، يلقيه بين اللصوص فى غرف الحجز · يسألونه لماذا جاء ، أى تهمة ؟ بماذا يجيب ؟ لايأخذه يأس ، يفتش تحت آخشاب الحجرة ،

وراء طلاء الجدران ، فى القضبان التى تسور العمر ، فى غرف التعذيب ، فى اللوريات الرمادية المغلقة ، تأتى امرأة سجين تناديه من الطـريق ، يتعلق السجين بقضبان النافذة ، تحكى له عن آخبار العيال ، ذهاب أخيها الى المحامى من أجله ، آمه بخير ، سيجذب سامى الرجل ، يتعلق بدلا منه ، يسأل المرآة ، عابرى الطريق عن مولاه ، آه ، يترقرق الحزن فى عينيه ، يرى نفسه معتقلا ، أو نزيلا فى مستشفى للأمراض العقلية ، ولو ‥ سـيبحث عنـه ، ربمـا تخفى بين النزلاء ، فى الأشجار الجرداء ، فى ذرات الرمال المرشوشة بالبول ، كل صباح يكتب خطابا الى هدى ، ينتظر مجيئها فجأة، تطبع أثر قدميها فوق الأرض التى مشيا عليها من قبل ، لكن ‥ لو آلقاه الأعداء فعلا وراء الأسوار من يزوره؟ من يحمـل خطـاباته ليلقيها ؟ من آين يأتى بطـوابع البريد ؟ روح أبيه تحوم حوله ، يرى آمـه وهما عند أشجان الفجر ، آه لو يقول كلمة ، صمته يلوى روحه ، يفيض آسياخا محماة فى قلب سـامى ، لو كلمـة ، آه ياناطق الزمان ياامام ، العمر الطويل تمهيد للحظات الصمت هذه ، آهكذا ‥ ببسـاطة حادة مرهفة كحد السكين ‥ أهكذا ؟

خراب
الجسور

(١)

« •• عندما سمعت صوت آختى «سنوات» • على الطرف الآخر من التليفون تعجبت ، تساءلت عما جرى، لاتحدثنى هنا اطلاقا ، تشير الساعة الى تجاوز الثالثة والنصف ، بدا صوتها بعيدا مما آجهدنى فى التقاط الألفاظ •

ــ من أى مكان تتحدثين ؟؟

ــ تحت البيت •

ــ بيتنا ؟؟

ــ طبعـًا • من الاجـزخانة • بـاقى لك وقت طويل ؟؟

ـ حوالى أربع ساعات ٠٠ ثم أذهب الى الكلية ٠

ـ هل جرى شيء ؟؟ ارفعى صوتك ٠

ـ أنا مصرة ناكل معا ٠ أتمنى الحديث اليك ٠ من مدة كبيرة لم نقعد على مائدة واحدة ٠

ـ لابد فيه حاجة ٠

ـ أبدا والله ٠ نفسى أتكلم معك ٠

ـ لكن ٠٠

ـ ولايهمك ٠ أقضى شغلك ومهما تأخرت ٠ أنا منتظرة ٠

لم أرها أثناء الحديث ، لكن صوتها ، تدفق الكلمات ، أوحيا بالبهجة التى تزحم روحها ،رأيتها تقف ، تحيط بوق السماعة بيدها ، صوتها خفيض ، تشب على أطراف قدميها ، تقطب عينيها اذ يرق حسها ٠ « ٠٠ نفسى أقعد واتكلم معك ٠٠» تختلف مواعيدنا ، تضمر أوقات لقائنا ، تقل مرات أحاديثنا ، أول النهار لا ألمح الا آثار عملها المبكر فى البيت ، نظافة الصالة ، افطارى فوق الصينية الخضراء المنقوشة بورود حمراء ، أطيل تأملها ، ومتابعة فروعها المتشابكة ، طبق فول ، بيضة مسلوقة ، ملح ناعم

مخلـوط بفلفـل ، آكل بسرعة ، لا أنظف الأطبـاق ، «سـنوات» تنفض الغبار عن الكتب ، تلملم الملابس ، تخصص يوم الثـلاثاء للغسـيل ، تنهى كل شىء قبـل وصولى ، أعود متعبا ، يضج النهـار فى رأسى ، زحام عربات وعرق ، وبحث فى أدغال القواميس عن معان مبهمة ، ألوذ بفراشى الضيق فى ساعة متأخر ، أسـمع خطواتها الخفيفة ، تلامس مشـاية اللوف فى الطرقة ، تطل على ، تقف بباب حجرتى ، عينـاى مفتوحتـان ، لا أتحرك ، لا أنطق حرفـا ، أخبىء يقظتى ، أضيـق بحروف خفيفة قـد نتبادلها ، تصغى ، ربمـا الى وقع انفاسى ، تتراجع على مهل مخلفة همسا من رائحتها فى الغرفـة ، اسـتعدت ملامح صوتهـا ، «نفسى أقعـد واتكلم .....» أى مناسـبة أو حدث ؟؟ فى زحـام حياتنا تفقـد المناسـبات أجهل يوم ميـلادها ، أعرف ابريل لكننى لا أدرى اليوم ، لا نتبادل الهدايا ، توقفت عن ترجمة البحث ، مكاتب الصـاج مصفوفة أمامى ، فى السـقف تدور المروحة الكبيرة على مهل ، أى جدوى لهذه الدورات ؟؟ الحـر يتمدد فى الفـراغ ، استعدت هدوء البيت ، صورة أمى وأبى ، تطل علينا من اطار كبير ، طرقت صاج المكتب بقلمى ، «.. نفسى أقعـد واتكلم ...»

(٢)

بدا الليل غطاء كثيفا من غربة وارهاق ، أرى ذرات الفراغ ، عاط بوق عياطا متصلا انقطع فجأة ، أى أمور شغلتنى ، أضعت حديث «سنوات» منى ، أى واقعة بالتحديد ؟؟ خروجى من المكتب ، تحسس جيوبى بحثا عن دفتر تليفونى ، ضيقى وعودتى الى الكتب ، اخراج مافى الأدراج ، فض المظاريف ، ثم يبرق خاطر كطلقة • افتح الحقيبة • أتناول الدفتر ، أقلب وريقاته، أضمه فى جيب قميصى ، كيف نسيت ماقالته ؟؟ بعد المحاضرة الثانية ، وقوفنا فى الطرقة أمام المدرجات ، مجىء مجدى يقضم رغيفا صغيرا سألته ، من أين ؟؟ أشار الى الخارج ، اعتبرت هذا عشاء يكفينى • «سنوات» فى عينيها وحشة انتظار ، تقف أمام المطبخ، تمسك خصرها بيديها •

ـ قم واغسل وجهك • أعددت مايسرك • ولم أنس السلطة الخضراء •

ينتصف الليل بعد قليل ، أقاوم ثقل جفونى ، لا أدرى ما الذى يحرك « سنوات » بخفة هكذا ؟؟ ربما تخبىء مفاجأة • عضضت شفتى ، استعدت هزهزة الاوتوبيس ، تعلقت بعينين واسعتين تنظرانني

من فـوق أحـد مقـاعد الدرجـة الأولى ، نافـذتان شفافتان ، يبرقان يرفرفان على عالم فيه راحة ، وأمان ، ووعود غامضة بالوصول • اتخذت موقعا مناسبا يمكننى من إطلالة عليهما • أحيانا تحولهما صاحبتهما إلى الطريق ، كأنها تعرفنى ، وتعرف «سنوات» من أين جئت ، وإلى أين ؟؟ ازددت قـربا ، فى انسـيال النظـرات نبـل أسـطورى ، ألغـاز حضـارة بعيدة • تمنيت النزول ورائها ، أقف على سرها ، أفك رموزها ، تابعت نزولها ، اعتذار خفى بكل كيانى ، المحاضرة بدأت فعلا ، هل سأراها ثانية فى أى مكان ، متى ، تقول «سنوات» :

ــ أنظر هذه المجلة الانجليزية • منذ شهور قررت أن أعد لك هذه الأطباق • لن تأكلها مرة واحدة طبعا • انما سـأعدها لك صنفا صنفا ، وكلما سمح مصروف البيت • مد يدك • تذوق ••

قضمت نصف أصبع كفته •

ــ الطبق كأنه تجسد خارج الصفحة •

ــ ولكن ••

مدت يدها ، أصبعها يلامس شفتى ، حركة تفيض أنوثة ورقة ، عاودتنى زرقاء العينين ، زرقة حقيقية ، نغمية ، راودنى يقين أننى سأراها فى الحلم ••

ـ لاتخش المصاريف • تكاليف الطعام اليوم بدعوة منى • ياأخى العظيم • عندى بقية نقودى من جمعية قبضتها منذ شهور • أنت مدعو الليلة الى العشاء •

تغدق من عينيها حنو عظيم على ، الخطوة الطبيعية أن أقوم ، أحتضنها ، أقبلها ، ثقل يحوشنى ، عواطفنا لاتعبر عنها بالقبلات ، حتى مرات سفرى النادرة أكتفى منها بملامسة اليد ، لانلوح بالأيدى ، ينعقد اللعاب فى فمى ، يبدو الطعام شهيا ، لكن • هل أتساءل عن امكانية بقاء الطعام الى الغد ، تبدو مستعدة لحديث طويل بعد العشاء ، «نفسى أقعد وأتكلم ••» أود اللجوء الى فراشى فى لحظة ، قبل خطوها الى الداخل • ناديت •

ـ سنوات •••

التفتت •

(٣)

لمحتها •

لم يخنى نظرى ، ولست مخطئا • عند نهاية الكوبرى تتدفق المركبات ، يمكننى القفز من العربة

قبل المحطة • أستدير ألحقها • أتأكد مما رأيته • يبدو النيل ، أمواجه تمضى فى وثبات لينة ، النهار لم ينتصف بعد ، لم تمض دقيقتان ، لاتكفيان للعبور الى الطرف الآخر ، اذن تحركت الى هذا الاتجاه ، بالتأكيد لا تتأبط ذراعه ، انما تمشى بجواره تماما ، يلوح بيده ، هى صامتة لكن ملامح وجهها تصل الحديث بينهما ، أدركت تعبيرات وجهها فى رؤيتى العابرة ، بخطى تقترب من الجرى ، حاولت دخول الحديقة • صدنى حارس أسمر اللون •

ـ ممنوع • ممنوع ياأستاذ •

لم أجادله ، لابد أنهما اتجها الى الطريق المحاذى للنيل ، ثلاث درجات بها تقترب الأرض من النيل ، مددت البصر ، بلاط مربع كبير ، التراب مخلوط بزهور جافة تتساقط ، رائحة نبات مهروس ، تموت هنا أصوات العربات ، الطريق قريب ، لكن ثمة هدوء متراخ فى الفراغ ، لا أحد هنا ، كيف • فى هذه الساعة من النهار ، حتى العشاق نأوا ، وباعة عقود الفل ، والترمس ، والزهور ، واللب ، ومتكدرى الخاطر المعتصمين بهدأة النيل ، تلفت ، يمتد الكوبرى كقلعة ضخمة من الصلب والأسفلت ، دعائمه تطعن

النهر ، تتحرك العربات بلا صوت يدرك هنا ، كأن حاجزا غير مرئى يجمد الأصوات ، يحول المنطوق الى صامت ، أين ذهبا ، تأخذنى رغبة حادة لأراها الآن ، أمد لها يدا ، أتعرف اليه ، أطلب منها أن تجيب ، هل تحبه ، هل تحبه فعلا ؟ أسأله ، هل يحبها ، أمسك أيديهما ، أميل ، أقبلها ، أنتحى بها ركنا ، أصغى الى كل ماتخبئه ، «٠٠نفسى أقعد وأتكلم معك ٠٠» أخفف عنها ، أزيح ثقلا تنوء به ، ربما دعوتهما الى عصير فاكهة فى الكازينو القريب ، نمشى ثلاثتنا ، ياه ٠٠ لم نخرج أبدا للنزهة منذ وقت بعيد ، لم ندخل سينما ، لم نزر أحد أقاربنا معا ، لا أعرف أسماء صاحباتها ، رأيت بعضهن فى البيت ، بتحفظ صافحتهن ، تجهل أصدقائى ، زملائى فى قسم الدراسات العليا ، لا أتساءل عن الاماكن التى أتردد عليها ، أبدا ٠ سأصارحها الآن بضرورة اقترابنا ، لن أمضى الى الكلية لكن الطريق موحش ، الزحام قريب والخلاء هنا عجيب ٠ عيون النيل الخفية تنظرنى ، ريح خفيفة تحرك أوراق الشجر ، ربما رأيت أسطورية العينين الآن ، ساتقدم منها ، أحدثها عن «سنوات» ، نبحث عنها معا ، فوق النهر يمضى مركب شراعى متمهلا ، لم ألمح فوقه انسانا ، لا أدرى أين ذهبت سنوات ٠ أين

صـــاحبهـــا ، أين تقيـــم زرقـــاء العينـــين ، أين تخفى أسرارها ، يهبط قلبى بمقدار قبضة يد ، ربما تركب قطارا يحملها الى مدينة أخرى ، ربما سافرت الى بلدة بعيـــدة لن أذهب اليهـــا قط ، تحـــادث غرباء وتناجى غرباء ، ربما .. ربما رحلت رحيـــلا أبديـــا ، ثلاثة أيام مضت على رؤيتها ، مايمكن وقوعه خـــلالها كثير ، أما سنوات ، أين ، وكأننى ألمحها ، لم أود الاصغاء الى ماتكنه الآن ، أثق فى رؤيتهـــا ، أدركنى عجز وناء بى أسى .

ـ سنوات .. سنوات ...

(٤)

رأيتها تقف بالباب ، أنهيت اضطجاعى ..

ـ تعالى ..

أومأت مرحة ، جلست عند طرف السرير ، تبسط راحتيها ، تضمهما ، تدسهما بين ساقيها .

ـ سأعطلك .

ـ أبدا .

ـ عموما قررت الليلة ألا أنام حتى أراك .

ـ خيرا .

بدلال هزت رأسها •

ـ أبدا •• أراك ••

أطرقت ، على مهل تقول :

ـ وأتكلم معك ••

تتأهب للافضاء بما تود البوح به • فى هذه اللحظة أدركت أننى نسيت تماما ملامح زرقاء العينين ، اختلطت بالزحام ، وأشجار حديقة الأورمان والخضرة الخصبة ، لكننى لم أفتقد خلاصة المعانى ، أين ذهبا اذن ؟ كيف ضاعا منى ؟ رأيت ألا أفاتحها فى الأمر الليلة ، ربما امتد الحديث وتشعب الموضوع ، لست متأهبا للاستفسار والمناقشة ، جاءت بنفسها ، هل لمحتنى أثناء بحثى عنها ، منذ أيام أخفت ضيقها ، حتى الآن لم نأكل معا ، أول أمس ، قالت انها لن تدع يوم الجمعة يفلت ، ستغلق الباب ، لن تسمح لى بالخروج •

ـ هل أعطلك ؟؟

ـ أبدا • أبدا •

تعض شفتها السفلى ، بحركة خاطفة تتربع فوق السرير ، نظراتها جانبية ضاحكة ، لم أعتد هذا الخجل

الأنثوى ، عندما أنظر الى صورها أثناء الطفولة ، لا أتعرف فيها على مقدمات هذه الأنثى التى تفيض حيوية • تستعد للحديث •

ـ تعرف ؟

لحظة نطق الكلمة ، بلا قصد ، نظرت ساعة معصمى ، تمضى العقارب الى الثانية صباحا ، قامت •

ـ واضح أننى أعطلك •

بريق الحماسة خبا فى عينيها ، الألفاظ صرعت عند طرف لسانها • تدلت يداها ، قطعت حبلا يصل الأشرعة ، مزقت وصلا كاد يتم ••

ـ أبدا • اننى أسمعك •

عبثا تلتئم الضفاف ، أعطيت ودا رائقا فى عينيها •

ـ أعرف مشاغلك ، لن أعطلك •

فى صوتها خيبة من أوشك على بلوغ المراسى ، ثم اكتشف وعورة القيعان ، نتوءات الصخر الحجرى ، فعلا سألقى راحتى بمفردى اتمدد قبلك ، استدعى حوادث يومى ، أرقب دولاب الكتب فى العتمة ، قبل خروجها صحت :

ـ ياه • كدت أنسى • خيـل لى أننى رأيتك فوق كوبرى قصر النيل عند الظهر • •

ـ أنا ؟؟ أبدا • أنا لم أفارق عملى اليـوم كله • يمكنك أن • •

تبدو فرحة قليلا بتلميحى ، صـدور اهتمام من جانبى ، ربما استعادت حماستها ، تعود الى الجلوس ، تحدثنى عما تكتم ، أبدا ، الصدأ يخنق البريق ، تثاءبت، أغدقت حنوا على صوتى •

ـ أبدا ياسنوات • يكفى قولك هـذا • خيـل لى فقط •

(٥)

لا أدرى كم نمت ؟ فى هدأة الليل اذ يدركنى قلق، أعود جنينا أتلمس جدران الرحم ، يثقلنى همود الليل، بينما يعدو النهار فى رأسى ، أرى مالم أتوقف عنده فى يومى الراحل ، أستعيد ملامح عجـوز يمشى مرتجف الخطى ، يوشك أن يقع ، بعد أيام أدركت هدفه ، فتاة سمراء صغيرة ترتدى زى المدارس الثانوية ، تطل من حقيبتها كراسات ، ومسـطرة ، وعلبة ألوان مائيـة ، يقترب حتى يحاذيها ، يبتعد ليعود من جـديد لحظـة

وصول آتوبيس ، تنتشر الحـركة بين الواقفين ، يزداد قربا منها ، اليوم سمعته يلقى تحيـة مقتضبة خجولة «صباح الخير» أسرع مختفيا ، تنظر الفتاة الى الأمام ، لايعنيها مايدور حولها ، الآن •• تطل زرقاء العينين ، السمات ضائعة ، لكن الجوهر لم يفتقد ، تنظرنى من اطار باهت قديم ، لحن غير منطوق يأتى من جزر بعيدة، لغز من حضارة قديمة لم يحل ، أضعتها بسهولة ، فى المكتب أثقلنى وجودها داخلى ، قام جلال زميلى ، اقترب منى ، شكا الى ألما فى كليتيه ، قلت اذهب الى الطبيب لعمل أشـعة ، وددت لو ابتعد عنى ، عـدت باحثا عن معنى العينين ، أمسك يـدى ، لامست جنبـه الأيسر ، ضغط أصابعى ، هز رأسه ، ليست هى السبب ، قلت مـاذا اذن ؟ مال الى هامسا ، قال انه منـذ ليلتين فتح النافذة ، لا عمارات أمامه ، يطل على خـلاء وسيع ، أصر أن ينام مع امرأته فى ليلة الصيف الحارة هـذه ، تمدد بجوارها حوالى العاشرة والربع بالضبط ، يذكر الوقت تماما ، التحمـا ، التصـقا ، احتكا ، مثيرات ومقدمات ، كم استغرق ؟ خمس ساعات كاملة ، حتى كادت تجن ، وعندما صرخت من اللذة كان العرق يبلله تماما ، أثناء الحديث صوته يتمهل ، يبدو بطيئا يبتلع لعابه ، أصغيت ، يلقى متعة فى قص التفاصيل ، قال:

بالتأكيد نسمة برد هى السبب ، اذ حـدث فى حـوالى الثالثة والنصف بعد استلقائه هامدا • آن هبت رقائق هواء نفذت كالابر الرفيعة الى كليتيه • قلت يستحسن الاسراع بالعلاج ، البرد فى هذه المناطق وعر وخطر ، لابد من الذهاب الى طبيب ، قام • بعد ساعات عاد الى هامسا ، خمس سـاعات ، آى والله حتى كدت آجن ، راودنى حنين الى آسرة وآطفال ، آنثى فى متناول اليد• لم أسأل «سنوات» عن أفكارها حول الزواج ، الرجل الذى تنوى قضاء بقية عمرها معه ، صورته فى ذهنها، ربما آحد زملائها ، لا آعرف واحدا منهم ، لم آزرها فى العمل مرة ، غدا سآسألها عنهم ، عن معارفها ، غدا بعد عودتى سآوقظها لو وجدتها نائمة ، نجلس معا ، نتبادل الضحكات ، آمس كنت قاسيا ، غليظ القلب ، عندها ماتود قوله ، لم آصغ ، الآن •• يترامى من بعيد صوت قطار يعبر الخط الحديدى القريب ، بدا الصوت مطأطأ كأنه لن ينتهى ، فى آويقات آرقى يثير فى هذا الصوت حزنا ، وذكرى آياما غائبات ، آرهفت السمع • باب حجرة «سـنوات» يفتح ، التقط صريره الضـئيل فى نهاية الطرقة ، تتجه الى الدورة ، لم تضىء المصباح ، هل أقوم ؟ آقفز آمامها فجآة بغد فتح بابى ؟ دعابة من دعابات الزمن البعيد ، فى البـداية سـتبدى انزعاجا

لكنها تضحك ، نتعانق ، صوت ورق يمزق ، ماذا تفعل «سنوات» ؟ لم يغلق باب الدورة ، واضح أنها تقف أمامه ، أوراق تمزق قطعا صغيرة ، يبطيء صوت التمزيق اذ يزداد سمك الورق فيصعب تقطيعه ، تشد «السيفون» تتدفق المياه بسرعة عالية ، اتخذت من طشيشها ستارا لنزولى من السرير ، أصغيت من خلف باب حجرتى ، أى أمر يحدث ؟ يد طويلة الأظافر خمشت قلبى • تبكى «سنوات» بصوت عال ، نشيجها يصلنى واضحا • أرى جسمها يهتز ، تذرف دمعا ، حتى رأيتها تبكى ؟؟ لحظة انزال «والدنا» غرفة الدفن ، اندفاعها المفاجيء ونواحها الملتاع ، أيدى الحريم تمتد اليها ، تحوشها ، تمنعها • «سنوات» الآن تبكى ، جاءنى صفير القطار من بعيد خيطا متسلخا متعبا ، يذوب فى الليل، عندما انتهى أحدث خواء كونيا وحشيا صارما يثقلنى، لم أدر هل بقيت فى الصالة ، هل عادت الى غرفتها ، هل تقف مكانها ؟ تلملم ماتناثر من قصاصات لتعاود أبادتها ، هل ارتابت فى قيامى فأخرست نوحها ؟ هل سمعت فعلا حركة قدميها وطشيش المياه ، غدا •• أستفسر وأعرف ••

(٦)

طلعت السلم بسرعة ، لن أذهب الى الجامعة ، سنخرج مقعدين الى الشرفة ، نجلس معا ، لن تضايقنا الشمس ، تواجه الآن جانب البيت الآخر ، تدثرنا ظلال حانية ، نأكل معا ، نتحدث ، نتحدث ، «نفسى أقعد وأتكلم معك ..» لا أنسى هزة صوتها عبر الأسلاك ، أصغى اليها ، أقول وكان حديثى يبدو عابرا ، خيل لى فى الليلة الماضية أنك قلقت ، وانك تبكين» .

ــ أهلا . أى مفاجأة .

افتقد رائحة البيت فى مثل هذا الوقت ، عبير الاستقرار ، رائحة الأثاث ، والغسيل ، وطعام طهى فعلا ، حملت الحقيبة عنى ، لاتتحرك بخفة ، افتقدت بهجتها ، عندما نبدأ حديثنا ستتبدد الوحشة . باب حجرتها مفتوح .

ــ الله .. عندك ضيوف ؟

ــ سهام صاحبتى . تعال أعرفك بها . تعال .

قامت سهام ، تبدو خجلة .

أخى ياسهام .

فاجأنى افتقاد زرقاء العينين ،كريستالية النظرات،

لحظات فى مركبة عامة ، عمر طويل من علاقة لم تتصل، طاقة قدر فى سماء فسيحة ، تبرق لحظة ، لايراها الا صافى القلب • فوق السرير مجموعة من صورى ، تعرضها سنوات على صاحبتها ••

ـ لاحديث لسنوات معنا الا عنك • عرفناك قبل أن نراك •

ـ ياه •• سنوات تبالغ •

تراجعت برأسها الى الوراء ، تقول • بجرأة تمحو آثار الخجل الأولى ••

ـ أبدا •• ياسلام ••

هل طالعتنى عيناها فعلا ؟ هل رآيت «سنوات» فوق كوبرى قصر النيل؟ تشب على أطراف أصابعها ، تعاودها سعادة ، تود لو بقيت معهما ، عدت الى الصالة ، تنفذ رائحة البيض المقلى • قالت انها لم تعرف نيتى فى المودة مبكرا ، لم أقل اننى رغبت فى الحديث معها ، أسألها وتجيب ، قالت انها لم تشتر بسطرمة لكنها تظن البيض والجبنة كافيين • عادت الى سهام ، سمعتها تقول انه يرهق نفسه كثيرا ، يخرج من مكتب الترجمة الى الكلية ، يواظب على المحاضرات ، قالت انه لن يهدأ

حتى يحصل على الدكتوراه، بعد الماجستير ، قالت بصوت خفيض ؛ أوقفت مضغ اللقيمات ، أن أخاها مثابر ، قالت سهام كلاما لم أتبينه ، ضحكت سنوات ، عاودنى الصوت خفيضا ، تتوالى دقات هاون نحاس من الطابق العلوى ، خطر لى القيام والزعيق مطالبا بالكف ، الوقت عصر ، البعض يغفو من عناء • سيبدو هذا منفرا ، عادت سنوات تضحك بهدوء ، ضحكا رائقا تذكرت بكاءها ليلة أمس ، بدا قضاء العصر فى البيت مقبضا ، نظرت ساعتى ، يمكننى لحاق المحاضرات •

(٧)

يبدو الحديث مصحوبا بصدى ، تنسال الرؤيا ، تقول سنوات انها ستدعونى ليلة ظهور النتيجة ، سترتدى فستانا لامعا ، أبيض محلى بلآلىء صغيرة ، دقيق كايماءة رأس ، تتأبط ذراعى ، ندخل معا ، نذهب بعد العشاء الى مسرح أو سينما • سكتت لحظة ضئيلة كثقب ابرة ، فى بريق البهجة ألمح الأسى ، فى تدفق الألفاظ أرى تعثر المعانى واختناقها ، شىء ما لا أقدر الامساك به ، يدفع مرارة مقطرة الى ركنى عينيها ، كأنها أهينت منذ قليل ، ثم كتمت ماحاق بها ، فجأة سألتنى : ألا تفكر فى السفر ؟؟ قلت : الى أين ؟؟ قالت : الى بلاد الدنيا ، رأيت رحيلنا معا ، ركوبنا

سفينة لنرى ركنا من الدنيا ، نواجه البحر والمدن النائية والغرباء ، نوقف الناس ونتعرف اليهم ، نقيم العلاقات ونكتب العناوين ، نناقش الركاب فى القطارات ، اذ يحاصرنا البرد فى غرفتنا الصغيرة ، بفندق قديم ، نستعيد طفولتنا ، ملامح أيامنا الضائعة • نذكر حديث والدنا عن استانبول ، رحل اليها فى شبابه أثناء عمله مدرسا ، سنوات تذكر بريق عينيه عند حديثه عما رآه ، ضفاف البوسفور ، مآذن استانبول ، حواريها الضيقة ، لكنة الآذان الغريبة • قالت : نبدأ باستانبول ، مارأيك ؟؟ أومأت موافقا ، رفعت ذراعا ممدودة الى أعلى ، لندخر المال ، لن أضايقك ، ابتسمت ، لو رأيتك معجبا بفتاة ما فلن أقف حائلا أمامك ، يمكنك تجاهل وجودى تماما ، وكأننى لاأشغل حتى جزءا من الفراغ • أبدا •

(٨)

يرسل المصباح ضوءا واهنا كالوحدة ، البيوت مصلوبة فى سواد الليل ، أربعة رجال يقفون أمام البيت ، أبطأت خطاى ، طفلة صغيرة تلمحنى ، تصرخ •

ــ أبلة سنوات • أبلة سنوات •

أحاطت ساقى بيديها ، ابنة عم محمد البواب ،

تقدموا ، رأيت الشارع ، بلاطه المضلع ، الهواء فى الفراغ ، رائحة غسيل منشور ، رأيت أحد الرجال مرتديا حلة زرقاء بصفين من الزراير النحاسية • رأيت استانبول ، الصور القديم ، فى احداها أحيط سنوات بذراعى ترتدى عقالا عربيا ، أشهر مسدسا بينما يبدو وجهها الطفل رائقا ، رأيت الرحيل ، الأطباق منكفئة فوق طعام بارد ، بينما يهبط داخلى ثقل من رصاص •

ـ أبلة سنوات • أبلة سنوات •

ـ بقيت هنا مغطاة أربع ساعات • لو نعرف تليفونك لاتصلنا بك •

ـ الاسعاف لم تنقلها •

ـ أخذوا عم محمد البواب لسماع شهادته • هو الذى رأى كل شىء •

ـ كان يقف لحظة •

تنفصل الطفلة عنى ، لا أقدر على النظر الى أعلى ، الى شرفتنا ، رأيت شرفات السلالم لامعة • موضع العينين تجويف خال من الزرقة • انتحت الطفلة ركنا ، مثلى تماما ، لم تر لحظة مجيئها الى العالم ، ولا لحظة رحيلها عنه ، لاأتبين ملامح الطفلة ، لا أدرك أصوات المتحدثين ، يدمينى النشيج الوعر •

ـ آه • أبلة سنوات • أبلة سنوات •

فهرس

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٤٥٧٤
ISBN ٩٧٧ – ٠١ – ٠٤٤٣ – ٤

مختارات فصول

تصدر أول كل شهر

«منتصف ليل الغربة» . . هى المجموعة القصصية السادسة للكاتب الكبير «جمال الغيطانى» ، الذى لفت إليه أنظار القراء بمجموعته القصصية الأولى : «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» ، ثم بمجموعاته القصصية التالية ، ثم برواياته الأربع ، وأيضاً بتحقيقاته ومشاهداته كمراسل حربى صحفى وأديب . والغيطانى ذو صوت متفرد ، تأثر فى لغته بلغة ابن إياس ، والتغربردى ، وكتب المتصوفة ، وأخضعها قصصياً لوسائل فن القص الحديث ، خاصة المنولوج ، والتداعى وتفتيت اللحظة ، وتداخل الأزمنة ؛ فهو وثيق الصلة بمعطيات التراث التاريخى ، والصوفى ، وكتب الأخبار والأسمار والمقامات والحكايات فى تراثنا العربى ، والأزمنة الماضية عنده سيالة ومتدفقة تصب فى قلب الحاضر ، وشخوصه ، على عذاباتهم الحياتية والروحية ، لا يتوقفون عن الحب ، والرغبة فى الخلاص ، والتوْق إلى مستقبل وريف .

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٠ قرشاً